يحيى الطاهر عبدالله

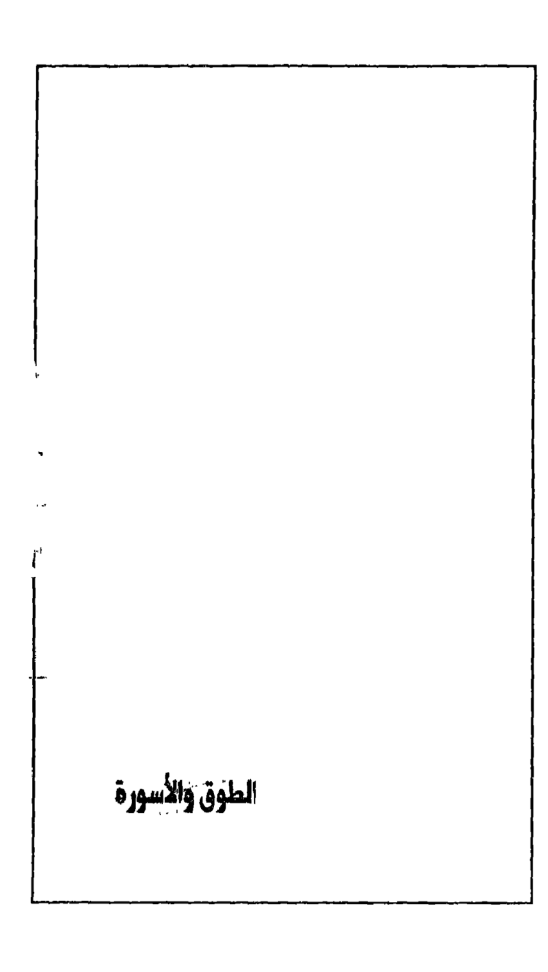
# الطوق والأسورة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



# الطوق والأسورة




# مهرجان القراءة للجميع ٩٦

## مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

## (الأعمال الإبداعية)

الطوق والأسورة
يحيى الطاهر عبد الله

الغلاف
الانجاز الطباعي والفني
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

# الطوق والأسورة

يحيى الطاهر عبد الله

# على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

وللعام الثالث تواصل مكتبة الأسرة إشعاعها الثقافى حيث تقدم هذا العام ١٧٢ كتاباً فى سبع سلاسل يصدر منها ما يقارب ١٨ مليون نسخة كتاب فى أضخم مشروع ثقافى قومى تشهده مصر الحديثة..

**د. سمير سرحان**

للشجر المورق العالى .. وللريح المغنية
وللانسان - على الأرض ذات الخير - فى قوته وفى ضعفه

# القســـم الأول

## الغائب

مع الرجال رحل مصطفى الى السودان ، وهو بعد صبى .
مر عام والعام الثانى يطوى شهره الأخير ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

## عقل حزينة قلب أم

عقل حزينة مع ابنها : هناك فى البلاد البعيدة . وأذنها اليمنى التى تسمع ــ هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى رقب : البشارى الراقد يتقلب فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم .

( صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس ، وتضعها بمكان به ظل ، يرقب الشمس الجارية فى السماء ، ويصرخ ، فى وقت « أبغى الشمس ، ويصرخ فى

وقت آخر » ابغى الظل « ــ هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، وهكذا تمر الأيام التى تطوى الأعمار : هى وابنتها تحملان القفة •• من الشمس الى الظل •• ومن الظل الى الشمس ــ لكنه رجلها فى الحلال ووالد مصطفى وفهيمة ) •

اليدان تلعبان ــ هنا ــ بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ، والعقل ــ هناك ــ مع الغائب فى بلاد الناس البعيدة •

## بخيت البشارى فى حديث يقظة

المصباح شح زيته والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينة المخرفة تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، معذورة : هى امرأة، الرجل منا كابد ، عقلها مع الولد ــ والولد بالسودان البعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم •• أشتهيه ، لو نمت وطال النوم ــ بدون أحلام وكوابيس ــ سأذهب الى الله الرحيم : أنا المسلم ــ وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومر هذا الوقت البطىء الثقيل الذى لا أحتمله •

## من حكم الليل معلم القرى

— ١ —

نجمة مشتعلة هوت من الســـماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض : ـ لو مست البشر أو الحيوان أو الزرع وحتى الجن لتحول فى التو الى رماد •

— ٢ —

مصطفى الأصغر لكنه ســيد فهيمة التى تكبره بعــامين ونصف عام :

يضربها وتحبه ، والأم موافقة والأب موافق ، مصــطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت • البنت ثوب أبيض طويل الذيل ، عليها ان تمسك بذيل ثوبهــا وتمشى فى الطريق محاذرة ، وهل بالطرق غير التراب والوحل والقش !!

## الصبية مضطربة والليل رفيق الافكار

هى بنت الأم والأب ، وهو شقيقها ، وهى تحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب • فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها ، فتتصنع البــكاء وتشتمه ، هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف ، وجهــه

الرجل يطفر بالدم الأحمر الدافيء ، والعروق فى رقبته تنفر وتكاد تتفجر .

ياحفيظ من غضبته ، هذا الذى كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل — يكون أحمد المحروق الحارس فى سابع نومة ، يسرق مصطفى البلح ويبيعه ويشترى الدخان ويدخن ، لم تقل فهيمة لأمها حزينة ولا لبخيت والدها ان مصطفى يدخن، وحتى الآن هما لا يعرفان ، لقد كان مصطفى يهاب أمه ويهاب والده المريض .

ولقد كان يسبح فى الترعة مع الأولاد ، دون علم والده وأمه ، وعلى غير رغبتهما ، خشية ان يغرق ، أو ان تخطف قلبه جميلة من بنات الماء فينساق خلفها الى الأعماق البعيدة الزرقاء .

خلع كل ملابسه ، وصار عاريا كما ولدته أمه ، تبعته فهيمة — لكن خفية ، ولم تقل لوالديها ، وهل كان بمقدورها أن تقول !؟ ، وحتى الآن لا هو ولا هما يعرفان .

خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسللت فهيمة متسترة بالليل ، وكان للبول المختلط بالتراب الجاف : رائحة ثمرة جميز خضراء عطنة ، وحين تتذكر فهيمة مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمر الجميز الأخضر العطن وفى الستر كانت فهيمة

تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه ــ التى تلم جسده ــ قبل أن تغسلها •

وها هى الصبية ترقب نجمها السارى وقلبها يرجف :

كم هى بعيدة تلك السماء الشديدة الزرقة ، وكم انت مخوف ــ رغم البعد ــ أيها الشقيق الغالى الغائب •

**الشهر السادس من العام الثالث**

همهمت الغجرية لترقص « الحلقان » المتدلية من الأنف والاذنين ، وسحبت من مقطفها صرة من القماش ، فكتها ، فبان رمل وحجر • مدت حزينة يدها ببيضتين • قالت الغجرية : « ثلاث بيضات » ، وابتسمت وهى ترمى فهيمة بنظرة ، ولمعت سنتها الفضية ، وتمتمت : « مليحة الصبية •• كالقمر لما يكتمل » • لمحت حزينة « الحلقان » وهى ترقص ــ قالت : لن أتركها تخطف ابنتى •• تلك التى لا دار لها ، سارقة الكحل من العين ، سارقة الدجاج والأطفال ، لن أتركها تسرق ابنتى ، لكنها تعرف كيف تكلم الحجر وتسمع منه ، ثلاث بيضات ثلاث بيضات ، هيه •

**ما قال الحجر وما قالت الغجرية**

أراه ، ها هو ، اقتربى يا أم وانظرى :

قطار من حديد أسود رمى خلفه الدخان والأهل والتراب والزرع والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء ، والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، وشمس جارية في السماء وشمس تجرى في الماء ، وفي الماء قمر وفي السماء قمر : انها الأيام والليالي يا خالة ، أبشري يا أم : في الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .

## خبر

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبي الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها ، وزعقت : « آماه .. آماه » . تملك حزينة غضب ـ سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطيني وصراخ فهيمة وصوت الجرة التي سقطت من فوق رأس فهيمة فانكسرت ، قالت حزينة : « الرعناء » . وصرخ البشاري ونفض عن رسه الغطاء : « البنت تصرخ في سوق على بضاعة بارت .. ما الذي جرى ؟ .. هل قامت القيامة !؟ .. صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد الحكم لأهله . قال بخيت البشاري » : البنت ما تزال تنادي في السوق .. من يكون عبد الحكم ؟ .. مالنا ومال عبد الحكم !؟ . قالت حزينة : « عبد الحكم ابن تفيدة بنت على .. رفيق مصطفى في غربته» . قال البشاري : «عبدالحكم بن طه محمد ..تقصدان عبدالحكم ابن طه الحاج محمد .. ههه ؟ » ، وسأل مستفسرا : «ومصطفى!!

ما أخبار مصطفى ؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها : « هذا النذير » ، وردت على بخيت بعد وقت وقد همت بلبس بردة الخروج : « منهم سأعرف .. سأعرف منهم » .

## بشاوة

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله : هاقد ارتاح بال حزينة ، جلست مع النسوة ومع تفيدة بنت على أم عبد الحكم ، أكلت تمرا ، وشربت شايا ، وسـمعت خمسة أطنان من الكلام عن الرجال وعن مضمون الخطـاب وعن المال ذلك الحلم ، ورددته كالببغاء على مسامع البشارى وفهيمة :

« يبيتون فى خيام تجاورها خيام ، والأرض ذات الخير محتاجة لماء ، يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية معهم فى الخيام وفى العمل عساكر سود يرطنون رطانة الانجليز الحمر ، وصوت الوحش البعيد يسـمعه الرجال ، الثعـابين كبيرة برقبتها أطواق سوداء ولها أجنحة ، وكذا العقارب كثيرة ، السودان بلد الاولياء والصالحين وأهل الخـير وبلد السـحر والأحجبة والمهـدى المنتظر بعض أهل البـلد يستطيبون لحم الادمى ــ لكنهم يسكنون الغابات بعيدا عن الرجال .

## الحمد لله والشكر لله

باكو دخان معسل كبير مرسوم عليه نجمة قايضت علي حزينة منصور الصادق صاحب دكانة الامانة ، أعطت حزينة منصوز الصادق ست بيضات وأخذت باكو المعسل وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى فى جمع النذور ، وطلبت حزينة من يوسف سليم أن يعطى باكو المعسل للشيخ موسى وأن يطلب من الشيخ صاحب الدعوة المقبولة من الله ان يدعو لمصطفى بالسلامة فى بلاد الناس .

## نقاش

قال بخيت البشارى لحزينة : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر : « باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة » .

فكرت حزينة : « بخيت البشارى كان يريد الدخان لنفسه .. كى يأمرنى باشعال النار فى الحطب .. ويأمر البنت بوضع الماء فى الجوزة .. وينفخ هو الدخان من فمه وأنفه ويكركر كالسلطان ، يوسف سليم رجل طيب » .

وقالت لبخيت : « يوسف سليم رجل طيب .. فضله الشيخ على سائر أهل البلد واختاره ليكون نقيبه فى جمع النذور .. هل اختارك أنت ؟ » .

فكر بخيت البشارى فى حزينة التى عرفها من المعاشرة الطويلة : « حزينة مناكدة •• هى الآن تريدنى أنا •• تريد لحمى لتنهشه •• أنا رجل البيت •• لما كنت أملك عافية الشباب كنت أغلق فمها •• لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاء لو صحت حزينة أو فهيمة على صوت بكائى سأصرخ فيهما : أتركانى لحالى •• ابكى من العلة •• لاشىء •• دعانى •• ابكى من العلة » •

قالت فهيمة حتى تبدد الصمت بين الام والاب : «الشيخ موسى كله خير وبركة » • وفكرت فهيمة : « وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه الشيخ وعبر النهر من الشرق الى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل » •

وعاد بخيت البشارى الى نفسه يلومها ــ وقد خاف الضرر المخبوء فى الغيب : « يوسف سليم رجل طيب •• كان يعمل بالتجارة ويكسب ، كانت دكانته حجرة من حجرات بيته تطل على الشارع •• ولما اختار الشيخ تلك الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف سليم عن الجزارة وأصبح نقيب الشيخ فى جمع النذور ، والشيخ يغلق باب حجرته عليه بالنهار ويظن الجاهل انه بداخلها بينما الرجل الصالح يجوس هناك بمكة المكرمة حيث قبر الرسول الطاهر ••

فى عام حج لمح الحاج حسن عبد الله الشيخ مندسا فى زحام الحجاج فناداه ـ لكن الشيخ اختفى بقدرة قادر ، نعم فالشيخ لا يحب العلانية فى العبادة .. حتى وقتنا هذا لم يشاهده مخلوق يدخل الجامع ليصلى .. لكن الشيخ يصلى ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .. ومن يقول غير ذلك فهو جاهل بمقام الاولياء » .

لولا المرض الذى يقعد بخيت لزار بخيت الشيخ ، وقبل يد الشيخ ، وبكى بين يدى الشيخ ، وجلس مع أحباب الشيخ ومريديه وسمع منهم وسمعوا منه ، وشرب المعسل ، وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول ، ويشارك فى الاذكار ، وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

## جـــواب

بعد ثلاثة شهور ونصف شهر من وصول رسالة عبدالحكم طه لأهله وصلت رسالة من مصطفى لأهله على عنوان الشيخ الفاضل .

أفاد مصطفى والده بخيت البشارى بالخلاف الذى نشب بينه وبين الريس عبد الظاهر ، وطلب من والده عدم التدخل فى موضوع الخلاف وعدم مناقشته فى ذلك الأمر الذى حسم .

قال مصطفى : « أنا رجل أعرف مصلحة نفسى ، فلا تدع الافكار السوداء تنتابك من ناحيتى ..

كتبت أخاطب الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام .. أرسلت خطابى بالبريد العاجل .. وفات أسبوع كامل من يوم أرسلت الخطاب .. حال مايرد الريس سعيد سأسافر من هنا رأسا الى فلسطين الشام .. سلامى الى أمى الغالية حزينة وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة تحت سقف بيت ابن حلال ، يأتى ويدق الباب ويقام العرس فى حياتك ياأبى : أطال الله عمرك » .

## عطر الحبيب

فرغ الشيخ الفاضل من قراءة الرسالة وهم بطيها، فخطفتها حزينة الملهوفة من يده وشمتها وقبلتها ، وكذلك فعلت فهيمة، وما عاد بخيت البشارى بقادر على كتمان فرحه برسالة الابن فطلبها وشمها وقبلها وحبس الدموع حتى لايفضح ضعفه وهو رب البيت مازال .

## ذلك المجهول

الفرحة برسالة الابن الغائب أنست الجميع أن يسألوا الشيخ الفاضل عمن كتب الخطاب لمصطفى الأمى . أما الشيخ الفاضل فهو الوحيد الذى قرأ تلك الجملة على ظهر الخطاب :

« مع تحيات محمد احمد كاتب الخطاب .. والسـلام لساعى البريد » وسأل الشيخ الفاضل نفسه « من أنت يامحمد أحمد ؟ .. ومن أى بلد أنت ؟ » .

## قلب العذراء فى الصندوق

« أ »

فجأة تقل رغبة البنت فى الكلام مع الآخرين من حولها لما تشعر بثقل الحمولة على الصدر ، تطل بعينيها من مرتفع على الصدر الذى انشق وترى الثديين شمسين طالعتين ، فيكثر حوارها مع القلب :

« عريسى قادم على حصانه .. عريسى الراكب فوق سرجه .. عريسى يطرق بابنا وأنا التى ستفتح الباب .. ان لم يكن اليوم فغدا .. ان لم يكن اليوم فغدا وتلك مشيئة الله .. يافرحتى لو جاء غنيا .. ولو جاء فقيرا فهذا نصيبى .. الغنية للغنى والفقيرة للفقير ولكنى مليحة فهل ترانى عيونك أيها الغنى مليحة .. كل مايروق لك عندى يارجلى .. هذه هى أشيائى الجميلة فى صندوقى الخشبى المحلى بصورة الزناتى خليفة والهلالى سلامة وكليب وجساس والبسوس المولولة : مكحلة .. ومناديل ملونة ذات شراشيب .. وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونة معطرة » .

« ب »

فتحت فهيمة صندوقها الخشبى ، وأخرجت من بين طيات الثوب المنقوش رسالة مصطفى ، وشمتها وقبلتها ، وما شبعت وما ارتوت ، ونقلت عينيها بين الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق ، وقالت لنفسها وهى تحاورها :

« هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف والصدر وشارب مفتول !.. وهذا هو الزناتى خليفة المصروع بيد الهلالى سلامة يحمل تحت أنفه شاربا مفتولا أكبر من شارب الملك !.. وهذا هو الهلالى قاتل الزناتى بغير نياشين على الصدر والكتف !.. ومصطفى يوم سافر كان بغير شارب .. فهل له الآن شارب يفتله !؟

## من الشام

بعد مضى أربعة شهور من وصول رسالة مصطفى الاولى من السودان وصلت رسالة مصطفى الثانية من الشام وبها حوالة بريدية ــ قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. وفلسطين الشام جنة الله فى الأرض ولا يشغل البال غير بعد الأهل .

## رسالة ثانية من الشام

مامر شهران آخران حتى وصلت رسالة من مصطفى ، بها مال أقل من المال الذى بعث به من قبل فى رسالته السابقة .. قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. ولا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن الأهل والأوطان » .

## حدث الشيخ الفاضل مع نفسه

فارق الشيخ الفاضل دار بخيت البشارى ورمى خلف ظهره خمسة بيوت طينية واطئة وحدث نفسه ــ هو الذى قرأ الرسالتين :

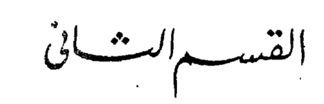
« جنيهان .. فجنيه .. ثم نصف جنيه ؟!.. ثم يأتى دور « لاشىء » : هكذا يدخل الابناء الحياة ويجربون ، المال فى يد الصغار مفسدة .. وفى يد الصغير المحروم كمصطفى مفسدة وأى مفسدة » .

ولم الشيخ الفاضل فى ذاكرته تلك التفاصيل وابتسم :

١ ــ ببيت بخيت البشارى سرير جديد : لم يجف جريده الأخضر بعد .

٢ ــ حزينة تأمر فهيمة بأن تحضر حصيرة وتفرشــها على المصطبة ليجلس هو : الحصيرة جديدة ومن عشب السمار •

٣ ــ أتت فهيمة بكوب الشــاى على صينية جديدة مرسوم عليها ورد أحمر كبير محاط بورق أخضر صغير لكنه كثير •



# القسم الثاني

# ما يخافه البشر

— أ —

هاهو بخيت البشارى ممـــدد على سريره — الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، قبل أن يقعده المرض من عامين • رفعت حزينة عنه الغطاء ، ورأت الوجه وقد شرب الالوان الثـــلاثة : الاسود والازرق والاصفر ، فخمنت انه الموت • قالت حزينـــة لبنتها فهيمة : « اركضى يابنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل » وقالت حزينة لنفسها — وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمـــكان الصدر : « ها هو يقاوم بعزيمة الرجال » •

— ب —

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلف وهم بالجلوس • أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم ان لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية • جرت فهيمة وعادت بحصيرة فرشتها على المصطبة •• وقعد الشيخ الفاضل •

ـ جـ ـ

خبطات الهواء تحرك الاوراق الخشنة الكبيرة لشــجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتا أشبه بزحف الحيــات وسط دغل الحلفاء ، وضوء شمس ماقبل الغروب الاصــــفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق •

أشار الشيخ الفاضل بالفائدة التى تعود على المريض من شعاع الشمس الأصــفر • حزينة القاعدة على الأرض بجــوار سرير زوجها لزمت الصمت • فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، وقالت لنفسها : « سأجارى امى فى كل فعل تفعله •• أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى » •

ـ د ـ

أدار الشيخ الفاضل وجه بخيت للقبلة الشريفــة ، وباعد بين الشفتين وصب الماء الطهور ، ومال على أذنه مجــاهرا : « لااله الا الله •• سيدنا ونبينا محمد رسول الله » ، وعــاد الشيخ الفاضل وقعد على الحصيرة فوق المصطبة •

ـ هـ ـ

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة ، خمن الشيخ الفاضل بعلمه ان ملاك الموت قد حضر • وقالت حزينة المحنكة : « نعم

هو ملاك الموت » • وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفونها ــ مثل أمها والشيخ الفاضل ــ لتحمى عينيها ــ فالتراب مهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين •

ــ و ــ

سمعت حزينة وسمعت فهيمة وسمع الشيخ الفاضل ، صوت الباب الذى انغلق خلف ملاك الموت الحامل روح بخيت البشارى • فما قدرت البنت على كتمان الصرخة العالية ، أما الأم المجربة فقد حبست صرختها وأطلقت دموعها ، فهى تعرف ان هناك واجبات نحو الميت عليها ان تقوم بها قبل ان تقول حان حين العويل • وتمتم الشيخ الفاضل : « انا لله وانا اليه راجعون »

ــ ز ــ

النسوة المعزيات يشاركن حزينة الصراخ ويلطمن الخد • وحزينة تعلم إن كل واحدة منهن تنادى موتاها الغوالى ــ لاحبا لبخيت فى حياته ولا جزعا عليه بعد مماته • أما هى فبعقلها ــ هناك : مع الولد البعيد الذى لن يحضر جنازة والده ، مع الميت ، مع الرجال بالغرفة القريبة •

« يرفعون الشعر عن الابطين والعانة ، ويغسلون الجسد بالماء ، ويدعكونه بعشب العفن المر ، يجمعون من جيوبهم ثمن الاكفان البيضاء ، يحملونه على خشبة ، ويصلون عليه ،ينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه ، وعليها هى ان تتدبر فى أجر الفقهاء الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلبا للمغفرة والرحمة .

## ٢

# على الأحياء
# واجب نحو أهل الميت

— ١ —

لأن الشيخ الفاضل يعلم حق العلم حرمة البيت فقد قام بواجبه :

اشترى الاكفان البيضاء التى لفت الميت من ماله ، وصلى بالناس اماما ، ودفع من ماله أجر الفقيه الذى قرأ القرآن على روح بخيت طلبا للرحمة والمغفرة .

— ٢ —

أيام العزاء مرت كلحظة خاطفة :

بخيت البشارى فارق دنيا الاحياء ، فهيمة فى مواجهة حزينة ، وحزينة فى مواجهة فهيمة ، هاهما وحيدتان ، عائلهما الرجل فى بلاد الناس البعيدة ، وهاهما — البنت والام — فى مواجهة عالم الناس وحيدتان .

والنسوة المعزيات شغلن الدار حركة فى الأيام التى مرت

أحضرن الشاى من بيوتهن لكى تفطر حزينة وفهيمة ، وبالبيض والجبن لتتغدى حزينة وفهيمة ، وغالبا ماكان العشاء اللحم المقلى والخضار المطبوخ .

وفى صوت حزين يفتت الكبد كن يرتجلن المراثى ، بعد تناول الفطور وعقب الغداء وقبل الغروب .

— ٣ —

من مراثى النسوة حفظت فهيمة ما تردده — الآن — بصوت خفيض ، حتى ترد الواجب فى حينه — لكل من شارك فى مأتم الاب — بدلا من الام التى شاخت :

« كتب الكتاب ياليتنى شفته ، كسرت القلم والحبر نشفته »

« كتب الكتاب ياليتنى رأيته ، كسرت القلم والحبر كبيته »

— ٤ —

لوح الشيخ الفاضل بالسيف الخشبى فى وجه الرجال — من فوق منبر جامع جده عبد الله — وخطب فى المصلين :

« امنعوا نسوتكم من ترديد تلك المراثى .. لن يرحمكم

الله ان لم تأمروا حريمكم بالكف عن الفعل الحرام ••والرجال قوامون على النساء •• وتلك عادة جاهلية وانتم مسلمون •• فلا تعرضوا موتاكم وأنفسكم لعذاب من الله شديد ••وصلوا على أرواح الموتى يغفر الله لهم ولـكم ولنا •• ان الله غفور رحيم » •

— ٥ —

كتب الشيخ الفاضل رسالة على عنوان الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام وطلب منه أن يسلمها لمصطفى بخيت على عجل • قال الشيخ الفاضل فى الرسالة : «انتقل والدكم بخيت البشارى من الدار الفانية الى الدار الباقية ، تجمل بالصبر ياولدى ، فليس من ديننا من لطم الخد وشق الجيب ودعا بدعوى الجاهلية ، الدوام لله وحده وكلنا الى فناء » •

— ٦ —

وصلت رسالة مصطفى على عجل — قال :

« لم أصدق ولن أصدق ، والدى حى — لكنه بعيد ؛ وأنتم بعيدون ، وتلك ارادة الله ، كان يجب على أن أراه قبل أن يرحل ، مرسل لكم مال لتقوموا بواجب الميت ، والدوام لله وحده ، ولكم طول العمر ، وانا لله وانا اليه راجعون » •

# نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان

— ١ —

أملت حزينة على الشيخ الفاضل ، فكتب :

« طلب الحداد الجبالى يد أختك فهيمة ، أجلنا الرد حتى تصلنا منكم الموافقة » وأضاف الشيخ الفاضل من عنده :

« الحداد حسن السمعة طيب المعاشرة ، يملك بيتـا من والده المرحوم الجبالى ، ويرث سبعة قراريط : ثلاثة قراريط من أمه وأربعة قراريط من أبيه ، ولا يأكل من ساعد الحداد غير أخته الحدادة زوج المرحوم القناوى ضاحى ، ولا أعتقد انه سيغيب عن بالكم ان الناصح ضاحى قادر ، وفقه الله ووفقكم ، ووفقنا جميعا لما فيه الخير والصواب » .

وذيل الشيخ الفاضل الخطاب بملحوظة ، أوصى فيها مصطفى بأمه وبذوى الارحام ، مذكرا اياه بقول النبى : «الجنة تحت أقدام الأمهات » .

استملحت حزينة الملحوظة ، فأمسكت بيد الشيخ الفاضل وقبلتها ، ومثلها فعلت فهيمة •

— ٢ —

أوصلت حزينة وفهيمة الشيخ الفاضل حتى باب الدار •• وخلعت حزينة غطاء رأسها ونفضت شعرها الابيض ورفعت ذراعيها وتطلعت للسماء الزرقاء المفتوحة ، ونادت الله :

« يارب اجعل عقله الميزان العادل للامور ، واجعل خلفه صالحا ، ومد فى عمره ، لقد وقف الرجل بجوارى أنا وابنتى فى الوقت الصعب » •

— ٣ —

وافق مصطفى على زواج اخته من الحداد وأرسل المال مساهمة منه في تكاليف عرس الغالية بنت الأم والأب ـ وقال :

« لو كان بمقدورى ارسال أكثر من المبلغ المرسل لأرسلت « والله أعلم »

ووعد مصطفى بارسال مبلغ شهرى لأمه :

« يعينك على مطالب الحياة التى أعرف انها قاسية »

تهلل وجه حزينة وكساه الفرح ، ودعت لمصطفى بطول العمر . وطوى الشيخ الفاضل رسالة مصطفى ولمح كتابة على ظهر الورقة فقرأ :

« ربطنى العيش والملح بأسرة شامية ، لها بنت هى عين العقل ووجه القمر ، ربما تم زواجى فى القريب العاجل .

— ٤ —

واضحة شمس هذا النهار ، والحق — مثلها — واضح لا ابهام فيه ، وحزينة لما علمت بخبر زواج ابنها — فى القريب العاجل — غطى الكدر الازرق وجهها . والشيخ الفاضل رأى وجه حزينة لما غطاه الكدر ، وحزينة غير قادرة على خداعه :

« هكذا — حتى تأتى العاصفة وتعصف بكل البشر — ستظل غيرة أم الابن من زوجة الابن غيرة أبدية » .

# القسم الثالث

من فلسطين الشام كانت الأموال المعلومة تصل حزينة بانتظام ، لم تنقطع علم الله الا فى شهر واحد ، واعتذر مصطفى فى الشهر الذى يليه :

« أسقطت زوجنا الغالية حملها ، كانت بالشهر الرابع ، وهى الآن تتمتع بصحة طيبة ، لولا هذا السبب القهرى ما تأخرنا فى ارسال المعلوم » .

ترددت فهيمة على بيت أمها بحجة الزيارة ، كيف يتقبل العقل تلك الزيارات المتكررة من عروس ، وهل يفوت حزينة ان الحداد أيضا كان يأتى فى أعقاب فهيمة مباشرة كما لو كان قشة تعلقت بذيل ثوبها :

« هيه .. مما يخاف الحداد ؟ .. آه .. أن تبوح البنت لأمها بسر لا يريد الحداد لحزينة أن تعرفه !؟ » .

فى كل مرة أتت فهيمة أتى خلفها الحداد ، ولا يبقى أكثر من الوقت الذى يشرب فيه كوب الشاى ، وينهض ، ويرمى فهيمة بنظرة عتاب ، فتقوم البنت وتتبع زوجها صامتة ! ، وهما لا يتبادلان الكلام مع بعضهما ولا يكلمان حتى حزينة » .

تحايلت العجوز وخلقت الخلوة التى جمعتها بأبنتها ، وها هما على انفراد :

« اطردى الخجل وصارحينى يابنتى أنا أمك » .

وقالت وهى تناور : « الرجل منهم يفلح أرضه .. يحرثها ويرمى البذور ويتابع الرى .. ثم يحصد ، هل يفلح الحداد أرضه ! .. أم ان الأرض كافرة لا تعطى ؟ تكلمى » .

ترددت فهيمة ثم باحت : « ينفخ المصباح ويأتى الى فرشنا .. يلمسنى ويظل يقاوم .. هنالك قوة تقيده .. يمر وقت طويل .. يهمد وينفلت فى بكاء مر » .

لامت حزينة ابنتها ، ورمتها بالبله والخيبة الشديدة ، وحذرتها من أن تحكى ما حكته لكائن من كان ــ وقالت معاتبة :

« وتكتمين عن أمك ليمر كل هذا الوقت !؟ مثل تلك الأمور لا يسكت عليها ، والأمر غير كبير كما تظنين : واحدة من بنات

الانس تريد الحداد لنفسها ولا تريده لك يافهيمة .. فاستعانت الشريرة ببنات الجن القادرات ، هكذا تم الفعل الشرير ، والشيخ العليمى ساكن نجع الحبيل الغربى يستطيع رد الشر الى صاحبة الشر : بيديه القادرتين سيفك الحبال التى تربط رجولة الحداد » .

قصدت حزينة الشيخ العليمى ، وطرقت باب خلوته بنجع الحبيل الغربى ، فأجابها وسمع شكواها ، وأعطاها قلب الهدهد الأبيض وزجاجة صغيرة بها سائل عكر وورقة طويت تسعا وتسعين طية . ومدت حزينة يدها بقطعتين من العملة النحاس . ورفض الشيخ العفيف المال ولم يأخذه الا بعد الحاح شديد من حزينة .

أذنت الديكة من فوق أسطح البيوت ، فهبت حزينة من الفرش ولبست بردة الخروج ، ستتجنب لقاء أى واحدة من بنات الانس حتى لا يبطل مفعول الورقة ، وتحت عتبة دار الحداد دفنت الورقة المطوية تسعا وتسعين طية .

يبقى قلب الهدهد الأبيض : يشوى ، ويصحن لدقيق ناعم ، وينثر الدقيق خلف كل زائر يدوس بقدمه عتبة دار الحداد :

« الحذر يا فهيمة يابنتى .. بطل كل شىء لو داست قدم الحداد ذرات الدقيق » .

« هذا السائل العكر لن أبوح لابنتى بسره .. فهو من صلب رجل كامل القدرة من رجال الجن ، على فهيمة أن تضع نقطة واحدة لا تزيد من السائل فى حلة ماء طاهر ، يستحم الحداد وتحفظ فهيمة الماء ، وفى اليوم التالى تفعل فهيمة ما فعلته فى اليوم الفائت ، وتزيد النقطة الى نقطتين ، ويستحم الحداد وتحفظ فهيمة الماء ، ويتكرر الفعل لمدة ستة أيام لا تتداخل فيها الجمعة المباركة ، وتزيد النقطة بعدد الأيام : هذا والا بطل كل شىء ، قبل طلوع شمس اليوم السابع تستحم فهيمة بالماء الذى جمعته من الستة أيام الماضية ، وتلتقى بالحداد فى فرشه ، وسيتم كل شىء باذن الله وتنال المراد من رب العباد » .

اعتذر مصطفى عن ارسال مبلغ أكبر من المبلغ الذى يرسله : بينما الجفوة القائمة بين فهيمة والحداد لها تكاليف ، والبنت الجاهلة بالحياة تخل دائما بالشروط وتفسد كل شىء ، وها هو الحداد يتحاشى حزينة حتى فيما لو زارته فى بيته ، يزوغ الحداد بعينيه ويتعلل بعلل لا تقنع عقل حزينة ليهرب من البيت وكأن

حزينة شيطان ، والبنت باحت لأمها بأن الحداد يضربها ولا يدخل بيته الا لينام بعد سهر طويل فى الخارج مع العاطل والباطل •

« يشرب الحشيش يا أمى فى غرزة توفيق السيك ، ويمص الأفيون ويدسه فى جيوبه ، ويدارى عجزه بالنظر لحريم الغير ، والحدادة أخته رمتنى بالتهم الباطلة ، تقول الحدادة اننى أنقل الأشياء من بيت زوجى لبيت أمى » •

« الحدادة تشعل النار فى قلب الحداد لتحترق ابنتى » •

« هل تصدقين يا أم •• لقد واجهنى وقال انى عاقر » •

سيطلق الحداد فهيمة ، ان لم يكن اليوم فبعد اليوم بيوم أو بعد شهر أو بعد عام على الأكثر ، الطلاق واقع لا محالة، والحدادة أخت الحداد تمهد للأمر وتشيع فى كل مكان ان بنت حزينة عاقر ، ومتى طلقت فهيمة من الحداد فلن يطلب يدها خاطب، وستبقى البنت مع حزينة فى بيت البشارى بضاعة بـرت : عازب وعاقر وعتبة داستها قدم ، الحدادة تطمع فى ما يملك الحداد من قراريط ، والحدادة لا تريد الخلف للحــداد لترثه هى ففى ذلك مصلحة لاولادها من القناوى ضاحى •

« هكذا اذن تجرى الأمور ، لا بد من تدبير سريع يسبق المحظور ، ولن يميز عقل الحداد المخدور بصفة دائمة ما ستخيطه حزينة بأبرتها .

قالت العجوز للصبية : « ربما كان العجز عندك » .

قالت البنت : « لم يقربنى قط » .

قالت الأم : « نجرب حتى نتأكد » .

ها هو المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير ، تهدم بعض الحجر وسقط من بعض جوانب السور بفعل الزمن العاتى ، الا ان بوابات المعبد السبع باقيات ، من فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان •

هناك بالداخل بهو الأعمدة حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم ، لقد حرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة ، وبالداخل رب النسل المكشوف العورة المحبوس بغرفته الضيقة ، والمسلة التى لم تكتمل •• المسلة ذات الصوت الرنان ، والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط رغم عيون الماء التى لا تكف عن البكاء لتصب فى حوض البحيرة الصغير : كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأساور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات •

أمام بوابة المعبد القديم وقفت حزينــة تكلم العرابى أب فكرى على انفراد • ومضت فهيمة تنقل عينيها بين الكباش :

« تلك الكباش كانت بشرا فى الزمن القديم ، وغضبة الله هى التى حولت بشر الزمن القديم الى حجر . عقابا لهم على كفرهم ، نعم .. كيف يتزوج الأخ من اخته ؟! والابن من أمه ؟! وها هم البشر العصاة يرقدون فى صفين متقابلين لهم رؤوس كباش وأجساد اسود .

تقدم العرابى أب فكرى من فهيمة وقال : « اتبعينى » .

ستدخل فهيمة على الرجل الذى كان يتفاخر برجولته فحوله الله الى حجر اسود بارد وجعله مكشوف العورة الى أبد الابدين :

« تركوه مع النسوة ومضوا للحرب ، ودامت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان هو يرسل لهم الأبناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه الها من دون الواحد الأحد » .

صر المفتاح فى القفل الكبير ، وصرت البوابة الحديدية الكبيرة ، وقال العرابى أب فكرى لفهيمة : « ادخلى » ، فدخلت ، ورد العرابى الباب خلف فهيمة .

فهيمة بمفردها ، والغرفة رطبة معتمة ، والخفافيش تطير قريبة من الوجه وتحرك الهواء الساكن ، وفهيمة تسمع صوت تنفسها وتسمع دق قلبها ، وبالتدريج وضح لعينى فهيمة ـ تحت الضوء الساقط من كوة عالية بالسقف المغلق شبح الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة : عينان حمروان كأنهما جمرتان مشتعلتان . حاولت فهيمة أن تطلق صرخة احتبست فى الحلق ، وفشلت فى ايقاف الرعشة الشديدة المفاجئة التى هزت بدنها ـ وهى ترى الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة يتحرك ويخطو نحوها .

« ها هو الظلام يطبق كثيفا .. انطفأ كليا نور العينين ، وسقطت الروح فى الكعبين ، والعقل ضاع ، أما السمع فحى مازال يلتقط دبدبة الأقدام الحجرية الكبيرة على الحجر » .

أسلمت فهيمة ظهرها لمن فتح الباب وغابت عن الدنيا .

« هذا بيت أمى ، أنا راقدة فوق سرير أبى الميت ، القائمة ترعانى هى أمى : ترطب جبهتى الملتهبة .. وتمسح وجهى الذى يحترق .. وتدلك عنقى .. وتضغط على صدرى ، الماء البارد حلو ، والماء الدافىء حلو ، النوم الطويل المقبل حلو ، أشتهى

البلح الرطب ، الأيام مالها تمر سريعة ، أشم رائحة عرقه ، أشم رائحة البول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن ، أشتهيه ، انت أخى وأنا بنت الأم والأب ، هاك حضنى .. خذنى .. تعال .

شربت فهيمة شايا دافئا ونامت نوما عميقا .

# القسم الرابع

## خير الماكرين

له التدبير الأعلى ، ارسل الموت — فى صورة خنجر بيد مجوسى خسيس — الى ابن الخطاب عمر وهو أمير المؤمنين ، ورمى النطفة فى بطن فهيمة فاذا هى حبلى بعد عام ونصف عام من زواجها بالحداد .

مكرت حزينة — لكن الله خير الماكرين ، وها هى حزينة تجنى الثمرة المرة : لقد خرجت فهيمة من بيت الحداد — طالق بالثلاث ، ولم يشفع لها عند الحداد انها حامل فى شهرها الرابع .

## رسالة الى مصطفى ورسالة من مصطفى

لخص الشيخ الفاضل الخبر البغيض وكتب :

« وقع الأمر المكروه من الله والنـــاس ، وبالطلاق الذى لا رجعة فيه انفصلت شقيقتك فهيمة عن الحداد » .

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، تصارع الوساوس فى

اليقظة والكوابيس في المنام ، خوفا من أن تقتل الظنون السوداء ابنها في بلاد الناس البعيدة ــ لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المـال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد ســموه البشارى .

## الى السوق

أول يوم ثلاثاء ــ عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة الى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر اسود وانثى بيضاء .

« الأنثى حامل باذن الله ، وفهيمة بحاجة الى اللحم حين تلد وأربع حزمات من الجزر ، نأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للارنبين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحـامل على الوقت الطويل فهى ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة فى العنب الأسـود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل !؟ » .

## طريق العودة طويل

قبل ان تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح ، تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها

الواحدة لتصطاد بنت انسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض فى سيرة خلق الله .

حكت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل فى العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة ان رغبة فهيمة ان لم تتحقق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

« الدلع طبع بنات اليوم .. حملت بمصطفى وحملت بفهيمة ولم ترغب نفسى فى شىء » .

قالت أمينة ــ رغبة فى المرح ، ولكى يقصر المشوار ، وحتى تتجنب الحديث عن طلاق فهيمة من الحداد ، ولتطرد صورة المتسول المقطوع الساقين بالسوق :

« احمدى الله .. ان تكون بنتك راغبة فى العنب هذا أهون من أن تكون راغبة فى البطيخ » .

وضحكتا ضحكة قصيرة انقطعت ، ولم تجدا بعدها كلاما

تقولانه ، حتى وصلنا مدخل القرية ، وبجوار الزير المملوء بالماء ــ تحت شجرة النبق المسماة بشجرة الله ــ ليشرب ابن السبيل العطشان المقبل بوجهه على القرية أو المولى ظهره للقرية ساعيا فى بلاد الله ، وتواعدنا على لقــاء قريب ، وافترقنا كل تبغى دارها .

# القسم الخامس

## لماذا نبوية ؟

زار الحداد مطلقته ، ليرى المولودة ، دس فى لفة المولودة قطعتين فضيتين ، وتحاشى بعينيه فهيمة ، وقال لحزينة منبها :

ــ « جئت من أجل ابنتى .. والمال لها » .

وعارض فى تسمية البنت بنبوية ، قال الحداد :

ــ « لماذا نبوية !؟ ، هناك أسماء جميلة كثيرة !! لماذا ترفضان الأسماء الجميلة !؟ ، هه لا أحد يشترى الأسماء الجميلة بالمال، لماذا نبوية ؟ ، سأسميها بحورية ، حورية اسم جميل والبنت جميلة ، الا تشوفان » .

## زيارة ثانية

أتى الحداد لابنته بأقمشة كستور ملونة .« لأن الشتاء مقبل » . وضاق الحداد من اصرار حزينة وفهيمة على مناداة بنته حورية الجميلة بنبوية . وقرر بينه وبين نفسه عدم مناقشة الأمر معهما ، وعليه هو أن ينادى ابنته الجميلة حورية :

ـ « حزينة عندما تركب رأسها لا يقنعها الكون بأجمعه ؛ وفهيمة بنت أمها » .

ولام الحداد نفسه الراغبة فى اعادة فهيمة لداره . وقال :

« كنت سأفعل ذلك من أجل حورية » .

واستعاذ الحداد بالله من تلك العجوز الداهية المسماة بحزينة :

« جعلتنى ادخل المحكمة لأول مرة فى حياتى ، وأقف أمام القاضى الذى حكم لفهيمة بدفع نفقة العدة ومؤخر الصداق ، ولن ترحمنى حزينة الا اذا دفعت نفقة للصغيرة ، لن أذهب للمحكمة ، سيتم الأمر برضا كل الأطراف ، لكن العودة لبنت حزينة محال : تلك التى شككت فى رجولتى وأحاطتنى بالنظرات الشامتة » .

**القرار**

ـ « سأدفع ريالا ونصف ريال لابنتى حورية ، سأرسل المال مع أى فرد غيرى ، حورية ستكبر وسأستردها من حضانة فهيمة بأمر من المحكمة ، نعم .. هذا هو قرارى الأخير : البعد عن الشر غنيمة »

وحتى ينتهى الحوار مع النفس كلية ، قرر الحداد أن يفاتح أخته الحدادة بشأن زواجه من بنت الصياد .

# القسم السادس

## على غير توقع حدث كل هذا

ـ أ ـ

عبد الحكم طه قدم من فلسطين الشام ، جاء بطرد هدية من مصطفى : قفص صغير به تين جاف وبندق وأقراص قمر الدين وثوب أسود للأم وثوب به نقش للأخت ، ولكل منهما طرحة سوداء ، وللبنت الصغيرة نبوية قطعة قماش تصلح ثلاثة أثواب .. وحذاء أصفر محلى بضفيرة حمراء .. وثور صغير من الحلوى بقرنين مشرعين .

من هدية الابن أهدت حزينة الأحبة :

« ألم يقفوا بجوارى فى ظروفى الصعبة التى مرت !؟ لقد قاموا بما يجب .. وهاأنا أرد » .

سنتان ذهبيتان لمعتا لما ضحك عبد الحكم ابن تفيدة وقال :

« مصطفى بخير حال .. ومشتاق للام وللاخت ..ويتمنى رؤية الصغيرة نبوية ، نعمل مع الجيش الانجليزى .. تحت أمر الريس احمد الزنباعى .. احمد الزنباعى بلديات من البرالغربى .. طالبنى بأن أزور أهل بيته .. سأزورهم اليوم .. حملنى أمانة وطالبنى بتوصيلها لأهل بيته ، قد نعود للبلاد فى القريب، مصطفى طلق زوجته الشامية .. لم يرزق منها بخلف ،مصطفى حملنى مالا وطالبنى بتسليمه لكم »

وأخرج عبد الحكم حافظة نقوده ـ كانت من الجلد .. صفراء اللون .. منتفخة .. مطبوع عليها بلون أخضر وجه لابى الهول ، ومن رزمة محكمة بخيط من المطاط استل جنيها، مد عبد الحكم يده بالجنيه لحزينة ، ومدت حزينة يدها وهى تبتسم :

« وقد طلق زوجته .. سيبقى لى بقلبه وماله .. انا التى حملته ببطنى تسعة أشهر وتحملت وسخه لما كان كومة لحم يقضى حاجته بالعويل .. لن يفسر عبد الحكم ابتسامتى بغير الرغبة فى المال !.. مع عبد الحكم مال كثير .. ليت مصطفى يعود .. أى كنز ذاك الذى يغرف منه الانجليز .. هى أموال قارون عثر عليها الانجليز ومنها يدفعون لمن يعمل معهم ! ..

قال عبد الحكم :

« مشغولاياتى كثيرة •• وهذه هى زيارتى الثانية لكما •• والوقت ضـيق ، اليوم سأزور أهل أمى بنجـع الملقطة ، معى رسائل وأمانات من الصحاب زملاء العمـل ويجب أن تصـل لاهاليهم ، سأزوركما فى القريب •• قبل السفر ان شاء الله• للسلام ( ونظر لفهيمة وابتسم )

فتح فمه وأغلقه على الذهب الذى لمع :

« ربما تودان ارسال اى شىء لمصطفى »

قالت فهيمة :

« احضر وتناول الغداء معنا •• سأذبح لك حمامة »

وابتسم عبد الحكم مختالا بسنتيه الذهبيتين ، وردت عليه فهيمة بابتسامة فيها حياء ، وقالت حزينة :

« انت ضيف •• وانت كمصطفى •• وأنا أحق من الغير وأسبق من الغير »

قال عبد الحكيم : « سأحاول » ، وشكر فهيمة وحزينة على شعورهما الطيب نحوه •

وقال انه يفضل زيارتهما له فى بيت أمه وأبيه رغبـة فى الانس والمسامرة ــ وابتسم •

حدثت فهيمة نفسها : « ربما يكون قد ابتسم بكسر عينه» .

وهو يودعهما ضغط على كف فهيمة ، واستبقاها فى راحته لوقت ، ولمعت سنتاه الذهبيتان ، ومن المؤكد انه غمز بكسر عينه :

« هل هو راغب فى الزواج •• أم هو طامع لانه سمع كلام الغير ؟ •• هو قادر بما معه من مال على الزواج من بنت حسب ونسب تفوق فهيمة فى الحلاوة ـ لكن قد يشط القلب وربما تزوج العاشق من مطلقة غيره » •

نعم ففهيمة لم تفقد بعد نضارتها وحلاوتها ، وهى ما تزال مرغوبة من الرجال •

زارت حزينة وفهيمة عبد الحكم فى بيت أهله ، تم الاتفاق على أن توصل فهيمة الحاجات المرسلة لمصطفى الى محطة السكة الحديدية •

قال عبد الحكم : « سأركب قطار الفجر •• سأنتظرك أمام باب المحطة فلا تقطعى تذكرة دخول »

قالت حزينة : « نبوية بنت فهيمة كما تراها تمشى وتتكلم »

وقالت حزينة لنبوية : تكلمى ياغالية •• قولى لعمك عبد الحكم سلم على خالى مصطفى »

رددت البنت نبوية كلام جدتها : « سلم على خالى مصطفى ياعم عبد الحكم »

تضايقت فهيمة من أمها : « هـذا يذكر عبد الحكم باننى تزوجت وطلقت وبرقبتى بنت »

لاحزينة نامت الليل ، ولا فهيمة نامت الليل ، حتى نبوية بنت فهيمة ظلت ساهرة لوقت متأخر من الليل : تقلب الأشياء وتجرى فى المناطق التى يغمرها ضوء القمر وضوء الفانوس .. وتضحك بعلو الصوت .

من دقيق القمح الابيض صنعتا الاقراص .. سطح الاقراص مغطى بالسكر ومدهون بالسمن البلدى ، والفرن الحـامى لم يحرق قرصا واحدا .

الفجر لم يؤذن بعد ، والقفة بها أقراص ، وبلح ، وغطاء القفة محكم بخيوط القنب .. أزف الوقت : فلتتحرك فهيمـة وتقصد محطة القطار بالبندر .

على باب المحطة قابلها عبد الحكم ، انزل عن رأسها القفة، ونظر لوجهها فأسبلت عينيها على خجل ، لمست يده وهى تهيط ثديها لمسا خفيفا .. فارتج الثدى :

« بقصد أم بغير قصد .. فى وداعه وعدنى : بالحرارة التى سرت من كفه الى كفى » .

طريق العودة طويل من البندر الى القرية ، فى الذهاب كان أقصر .

النور يرفع العتمة عن البيوت ، ويكنسها ، فتتجمع هناك فى الأفق القصى .. الشمس لم تطلع بعد .. وان كان هذا نورها .

صراخ له رنين مخبول ، ارتفع ومزق الصمت .

بلغت فهيمة دارها ، وقالت حزينة : « احترق الحداد وبنت الصياد » .

الليل والحر الخانق ، والرغبة فى النوم ممتنعة ، والرأس يدور فى دوامة الافكار المسعورة ، وفهيمة لاتكف عن الجرى خلف الحقائق :

« بنت الصياد بيضاء الجلد ، كالبطة دهن ولحم ،العينان واسعتان سوداوان بغير كحل ، شعر رأسها الاسـود الطويل كرموشها الطوال يلمع » •

« لو كشفت بنت الصياد عن صدرها ، سيرى الحـداد الثديين المشرعين •• وبياض اللحم •• والحلمة السـوداء •• والشق ، سيهم الحداد •• ويقاوم •• ويضم الجسد ••ويخاف الفضيحة المقبلة •• فيعض ويمزق اللحم •• ويسـكت الصرخة برش الجاز وحرق الجسد •• ويرش الجاز على نفسه ويمـوت محترقا بسره » •

« لو تمكن لحرقنى فأنا أيضا أعرف سره »

« هل يعرف بالى الراحة بعد اليوم ؟•• لااظن »

— ب —

هذه الحرب لاناقة لنا فيها ولا جمل ، ومع ذلك فالسلطات تطلب الاكباد للجهادية وهو ان الخدمة فى معسكرات الحمر الملاعين ، القادر دفع البدلية والفقير طلب من ابنه أن يقطع الاصبع الذى يدوس على الزناد .

اختفت سلع وبارت سلع ، وارتفع سعر الحاجات : ماكان بمليم صار بقرش ، حتى سكر القمح والمكنة والناعم اختفى والشاى يحلى بقطع الملبس والبنبونى — تلك الحلوى التى تذوب بصعوبة ، شح الجاز والزيت حتى الشموع والمصابيح تضاء بفتائل تغمس فى دهن الحيوان ، أصاب اليسر بعض الناس واشتد فقر العامة وعمت السرقات ، ولا رسائل تذهب الى الابناء ولا رسائل تجىء ، فلتحرق هذه النار الانجليز وليحترق هتلر والبقالون والملك وتجار الاكفان .

# القسم السابع

ـ ١ ـ

تلا حسان العاجز فاتحة الكتاب وختم بقراءة سريعة لسورة البقرة ، وطلب من حزينة وفهيمة أن تترحما على أرواح من ماتوا على دين الله وسنة نبيه ، وقام من قعدته ورفع كم يده اليمنى المقطوعة . وأفرغت حزينة مافى مقطفها الصغير من بلح وخبز أصفر .. معجون بلبن وكركم ــ فى كم حسان . ومضى حسان ليقرأ على قبر قريب ، وكانت بانتظاره نسوة قاعدات .

قالت حزينة لفهيمة ــ وهى تشير الى النسوة القاعدات :

« حريم الرجال ، من ماتوا بالبر الغربى فى حادثة الاثار »

رجف جسد فهيمة ، أمها تتكلم عن الحادثة القديمة والمعبد القديم ، وهناك أيضا البهو والغرفة المظلمة والرجل الاسود المكشوف العورة .

قالت فهيمة : « سأقاوم .. سأقاوم بعناد »

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحـــاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب من قدام فى وهن وفهيمة تتبعهـــا ، وأشجار التمر حنة ـ تحت هبات الريح الخفيفة لاتـــكف عن امطارهما بالزهو الاصفر • كانتا تسلكان طريقهما وسط المقابر محاذرتين متطيرتين من هول مايمكن ان يصيبهما فيما لو داستا عظام ميت •

حادثة الرجال الذين ماتوا فى المعبد القديم ترج عقلفهيمة وحزينة تلح على الاذنين بحكاية سبق أن حكتها أكثر من مرة :

« خرج رجل من النفق ، كان وجه الرجل متربا والعـــرق يتساقط من رقبته ويتكوم على صدره كتلة من الطين الاسود ، وكلم الرجل الريس بسيونى ، ونقل الريس بسيونى كلام الرجل لمفتش الآثار الفرنســـاوى ، رطن المفتش بالفرنســـاوى ورفع عصاه القصيرة فى الهواء وشوح بها فى وجه الريس بســـيونى والرجل المعفر : « ابن العرب يلعب ولا يعمل •• ابن العـــرب لايحب العمل » ، زعق الريس بسيونى فى الرجل المعفر فعـــاد الرجل الى النفق على الفور لينقل الامـــر للرجال •• وصرخت الارض بأمر ربها وصار الفوق تحت ، حدث ماحدث فىالظهيرة، ورفعت جثث الرجال قبل الغروب » •

جاهدت فهيمة جهاد الانثى الضعيفة لتطرد الخيالات والمخاوف السوداء ـ لكن عقلها عصاها ، فاستسلمت للقوة الغلابة تقودها خلف أمها بغير ارادة .

كلمت نفسها : « فكرى فيما جرى للرجال داخل المعبد ولا تفكرى فيما جرى لك فى المعبد .. لاتطاوعى أفكارك وألا وجدت نفسك بغرفة الربالاسود العارى المكشوف العورة » « المهندس الفرنساوى سقطت به العربة فى النيل ومات غرقا وكان مخمورا وكانت معه زوجته ، وامرأة الريس بسيونى تنجب الاولاد فيموتون فى شهرهم الاول »

انتهت حكاية « حادثة الرجال فى المعبد » فتوقفت فهيمة تتذكر حكاية أخرى حتى تهرب مما جرى لها فى غرفة الرب بالمعبد . وتذكرت حكاية الجنيات الثلاث فقالت سأحكيها لنفسى

« ثلاث أرامل .. ثلاث شقيقات ، يلبسن الاردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم ، يظهرن فى الظهيرة .. وقت تكون فيه الشمس بوسط السماء : عين حمراء متوهجة كجهنم، بينما ظل السائر وتد مدقوق بالأرض ، وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ، ثلاث ارامل .. ثلاث جنيات ، يمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والقطط الضالة .. فتتكسر العظام فى طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخنا يضرب وجه

الجنيات بينما عيونهن تقدح بالشرر .. ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء وصراخهن المجنون يصل للسماء وترتج له طبقات الارض .. القادرات .. ذوات أنياب الذئاب ، أصواتهن وكل الاصوات فى أذنى فهيمة :

« كلاب تنبح ، وقطط تموء ، وضفادع تنق ، ولحم يطقطق وماكينة طحين تدق : تك .. تك .... ماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم المستمر يتقدم الرجل الاسود العارى المكشوف العورة ويدب بقدميه الحجريتين فوق سطح من حجر .

— ب —

صحت حزينة بالليل الاخير على صـوت فهيمة تتضرع : « أماه •• أماه » فهبت من تحت الغطاء فزعة •

قالت فهيمة : « البرد •• البرد ياأماه »

« نعم •• جسـد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه موقد » •

لمت حزينة كل الاغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالخـل والماء بلت خرقة ومضت ترطب رأس فهيمة ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها ان رأت وجه ابنتها وقد شرب الالوان الثلاثة : الاصفر والأسود والازرق •

قالت لنفسها : « هى الحمى المميتة »

جاء المأمون المدكلم حـلاق الصحة ، وحلق شـعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتص بالمحجام الدم الفاسد ، مـلأ

خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال هناك دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتمل لأخرج محجامين آخرين وضمن بذلك سلامتها وقال المأمون المدكلم حلاق الصحة أنه سيعود مريضته بعد اذان الظهر مباشرة ويرى مايجب .

جاء المأمون المدكلم ورأى فهيمة مازالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد نارا وحمى مسمارا وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المدكلم : «بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والامر بعد ذلك لله وحده يفعل مايشاء » .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، واذن يوسف الاعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العصر ، واذن يوسف الاعور من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب ، واذن يوسف الاعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وهاهى فهيمة قليلة الخبرة تبتسم

صرخت حزينة فى وجه القادم ، وشقت ثوبها الى نصفين :

« لا .. لا .. انها لاترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .. انها لاتريدك انت ، لكنها تريد للعذاب أن ينتهى وللجسد أن يستريح .. لكنها حمقاء لاتعرف انك الموت »

# القسم الثامن

نبوية الوارثة لوالدها الحداد شرعا وقانونا . الحداد أخت الحداد الكارهة لنبوية وأم نبوية وجدة نبوية فكرت ودبرت لتمنع عن البنت الصغيرة « حق الله » . الحدادة قالت :

« أخي رحمة الله عليه باع لي ميراثه من الام والاب ، وهاهي ورقة البيع مختومة وعليها بصمة أصبع الحداد » .

حزينة استجارت بالشيخ الفاضل ليحميها ويبطل ألاعيب الحدادة .

الحدادة استعانت بالشيخ يسرى ابن يوسف دياب :

« لم يفلح في دراسته بالازهر الشريف ـ الا أنه قضى عامين برواق الصعايدة وهو الآن شيخ كتاب القرية ، على يديه يحفظ الصغار القرآن ، للافراح يرتجل الزجل المفرح ويقوله أمام الميكروفونات ، وللمآتم يرتجل الزجل الحزين وينوح أمام الميكروفونات .

قال الشيخ يسرى للحدادة :

« أتركى الأمر لى •• والمطلوب منك أن تسرعى وتسجلى ورقة البيع بالشهر العقارى »

وعرض الشيخ يسرى على الحدادة الزواج من بنتها انشراح •

ردت الحدادة :

« البنت صغيرة •• وانت متزوج من ثلاث »

قال الشيخ يسرى :

« حقى المشروع من الله أربع زوجات »

ردت الحدادة :

« دعنى للوقت حتى أفكر على مهل »

سأل الشيخ :

« فى •• ما ؟ »

أجابت الحدادة :

« زواج البنتين كلفنى الكثير •• وانا غير قادرة على تكاليف عرس الثالثة ، كما على أن أستشير السعدى •• لقد كبر الولد وصار رجلا وهو الذى سيحدد مهر أخته انشراح » •

الحدادة الماكرة تبتسم :

« سأحصل من الرجل العجوز على مهر كبير •• مهر بنتى سيكون أكبر من مهر قريناتها ، قلت للرجل : سأستشير ابنى السعدى ، سأعود للرجل وأقول : السعدى رافض •• دعنى لفترة حتى أجعل رأسه تلين ، ثم أعود وأقول للرجل العجوز ، الولد يطلب مهرا كبيرا لاخته ، سيقول الرجل العجوز : هذا كثير ، سأرد عليه بعد يومين : اتفقت مع السعدى على كذا من المال •• حاولت معه بقدر ماأستطيع •• لكنه لن يقبل أقل من كذا ، سيوافق الرجل العجوز فالبنت صغيرة ومليحة ووارثة »

قال الشيخ الفاضل لحزينة :

« سنرفع الأمر للمحكمة •• والقاضى هو الحكم »

# القسم التاسع

# ولد وبنت

الشيخ الفاضل يملك كرم نخل ــ لاسور له ــ خلف داره الكبيرة • وحتى تحصل نبوية على مرجيحة ، ستعقد طرف الحبل الطويل فى ساق نخلة والطرف الآخر فى ساق نخلة ، وما بين النخلتين فضاء متسع تطير فيه نبوية ، وقد بسطت ذراعيها قابضة على الحبل الذى يحز فى عجيزتيها ، ويرفع الهواء الثوب ويلفح الوجه الجميل •• ويجعل الشعر يتطاير ••ويأتى بالبهجة التى تصنع الضحك •

ابن الشيخ الفاضل من أسماء التى ماتت مقارب لنبوية فى العمر ، وهو الوحيد الذى يشاركها اللعب لما يعود من المدرسة، الولد عنده الكثير من الحكايات الحلوة •• يأتى بها من المدرسة ويحكيها لنبوية فتسمع وتبتسم وأحيانا تقهقه وفى بعض الاحيان تقول له انت تخرف فيغضب فتصالحه فيحكى لها حكاية أخرى:

« قرية الكرنك القديم هذه كانت فى الزمن القـديم هى والاقصر مملكة مصر والعالم ، كان اسمها طيبة ، وكان للمعبد سور كبير غير متهدم له بوابات وبه كانت تقـام الصـلوات ، وحول المعبد كانت بيوت الأهالى ، وبالبر الغربى توجد المقابر ، وكان طريق الكباش يوصل من معبد الكرنك الى معبد الاقصر وبالعكس ، والمصريون القدماء لم يكفروا بالله كما يظن الاهالى اليوم ، فهم أول ناس عرفوا الله وحنطوا الجسد بسر لم يعرفه البشر بعد ولن يعرفه الدود مهما حاول » .

« الارض كرة كبيرة تدور فى الفضاء ، وفى الفضاء تدور أقمار وشموس وتلك النجوم التى نراها فى السماء ....

ضحكت نبوية وظلت تردد نهاية كلمات الولد غير مصدقة:

« وتلك النجوم التى نراها فى السماء !

نفخ الولد ، وقال بغيظ :

« انت غبية »

عرفت نبوية انه غضب فقالت لنفسها :

« سأطيب خاطره » .

وقالت نبوية لابن الشيخ الفاضل المحروم من حنان الأم :

« احكى لى حكاية الملك » .

عاد الولد الى الماضى ، وتذكر ، ونسى غضبه :

« قبلها بيوم قال الناظر لكل المدرسة فى طابور الصباح : باكر يأتى كل منكم نظيف الجسم لابسا أحسن ما عنده وعلى رأسه طربوشه .. ومن محطة الأقصر حتى بوابة معبد الكرنك كنت ترين الناس على الجانبين : طلبة ونظار وأساتذة ومشايخ ونسوان وعساكر وضباط وعمال وكل موظفى المصالح يهتفون « عاش فاروق ملك مصر والسودان » ، ومرت العربة وكان بداخلها الملك وكانت مفتوحة النوافذ تجرها ثمانية خيول بيضاء كاللبن ، وكانت الستائر أيضا من الحرير الأبيض كاللبن ولكنها كانت مسدلة تمنع العيون عن رؤية الملك .. »

قاطعته نبوية : « هو أعور وله عين من زجاج » .

قال الولد : « كذب .. له وجه أحمر يطفر منه الدم » .

قالت البنت : « انت لم تره » .

رد الولد : « لم يره أحد قط .. لكنى رأيت صورته الملونة فى كتاب المطالعة .. والكتاب عندى وسأجعلك تشوفين الصورة » .

سألت البنت الولد : « يقولون انه يأكل خروفا بمفرده » .

قال الولد بقطع : « ليس كذلك، الطباخ يضع الخروف فى حلة كبيرة بها ماء كثير .. ويضع الحلة فوق نار حامية . فيقل الماء ويقل .. حتى يصل الى ما يملأ كوبا واحدا فيشربه الملك » .

الولد جميل فى عينى البنت .. وهو كل الأولاد ، والولد جميل فى عيون كل بنات القرية وهو كل الأولاد :

« يلبس البنطلون والقميص والجاكت ، ويدخل سينما البندر كل خميس ويطل من البلكون ، يركب البسكلت فيتطاير شعره الناعم ويغطى عينيه المغسولتين المكحلتين بكحل ربانى ، والده يملك الكثير من الأراضى والكروم والخيول والجاموس والحمير والأبقار والماعز ، امه ذات حسب : جدها يوسف عبد الكريم أغا وأمها زنوبة ووالدها عبد السميع عبد القادر » .

عالم نبوية ضيق : بيتهم ، كرمة النخل ، بيت الشيخ الفاضل ، النهر ــ لكنها ترى عالمها شديد الاتساع :

ــ فجدتها وان كانت عجوزا متذمرة دائمة الشكوى قليلة الحركة لا ترى البعيد ولا تسمع غير الصراخ ــ الا انها تحب الحلوى تماما كنبوية .

ــ وصالحة زوجة الشيخ الفاضل أخت أسماء التى ماتت، تكلفها بقضاء أمور مثل اشعال النار ووضع الجمر فى بوتقة النحاس وشراء دخان المعسل من الدكان البعيد وابدال ماء الشيشة العكر بماء نقى ــ لكنها كريمة تمنحها خيارة أو شريحة بطيخ أو حفنة بلح .

أما النهر فهى تعشقه : الشمس ترمى باللون فى الماء .. وطيور الماء ترف بأجنحتها وتلتقط السمك الميت الطافى .. والمراكب باشرعتها البيضاء المنفوخة بالهواء .. والجبل الكبير والرمال الصفراء على البر الآخر والبيوت صغيرة تحت الجبل كأنها الماعز فى المرعى .

ابن الشيخ الفاضل يحب الأرانب الصغيرة والأرانب الكبيرة والأرانب السوداء والأرانب البيضاء وهو حائر : تلك الحيوانات الضئيلة الأجسام ، كيف تطاوعهم نفوسهم فيسلخون جلودها !؟ ، كيف تشوى على نار وتقلى فى دهن !؟ الأرانب لا يجب أن تطبخ فهى جميلة مدهشة حين تنط وتقرض الحشائش وحين تحتمى بالجحور .

نبوية ترصدت للأرنب المسكين ، أعطته الأمان حتى خرج من جحره ، ولما بعدت المسافة بينه وبين جحره ، رمت نبوية بكل جسمها على الأرض وأطبقت بيديها على الأرنب وأمسكته ورفعت نبوية يديها بالأرنب لفوق وقالت للولد : « انظر » .

قال الولد : « انه ميت » .

قالت نبوية : « ما مسكت أبدا بأرنب حى .. دائما يموت

بين يدى .. وأنا لا أبغى غير تمرير الراحتين على الفرو الناعم اللين » .

قال الولد وهو مغمض العينين : « لا تمسكيه مرة أخرى حتى لا يموت » .

بكت نبوية وها هى عاجزة عن التوقف وغير قادرة على اسكات رعشة الجسد وعلى ايقاف صـــدرها الطالع النـــازل . ولكنها لا تريد افلات الأرنب الميت من بين يديها .

اقترب ابن الشيخ الفاضل من نبوية وطيب خاطرها وربت ى ظهرها بحنو ــ وقال : « لا تمســـكيه مرة أخرى حتى يموت » .

ارتفع بكاء نبوية ، فلم الولد جسمها الطالع النازل بذراعيه شدها الى صدره الصغير ــ وقال : كفى .. كفى عن البكاء » .

ولما لم تكف نبوية عن البكاء ، لم يقدر ابن الشيخ الفاضل لى منع نفسه من البكاء وقد استدعى بخياله صورة أمه المتوفاة .

# القسم العاشر

# أراجيف

# وأسمار

# ووقائع أيضا

— ١ —

— أ —

اليهودى الماكر بأنفه المعقوف ، عرض ثلاثة دنان من الخمر للبيع بأقل من ربع الثمن . ابن العرب الغنى قال لنفسه وهو يحاورها : « هذه الصفقة ما أرخصها » . بنت اليهودى الجميلة المختنة بيدها كأس مملوءة بالخمر ، ذاقتها بلسانها ، ورشفت رشفة ظلت تمتصها على مهل — قالت : « خمرتنا جيدة » .

( شعر البنت أصفر كالذهب النقى ، وعلى كل خد وردة حمراء ) .

الخمرة سالت من الشفاه ، وجرت فى الشق الذى يفصل بين الثديين وتجمعت عند الصرة .

— ابن العرب قال : « تلك كأسى » .

— بنت سارة قالت : « تلك كأسك » .

الأنف يشـــم والعين ترى ، وجلد الحية طرى ، وشـــعر الأبطين والعانة طويل ومرسل ، للعرق رائحة وللعطر رائحة ، الكلب يعوى والحية تلدغ ، والبيارة جميلة بها شجر البرتقال صفوف تقابلها صفوف ، والبنت جميلة ( على كل خد تفاحة حمراء وشعرها أشد صفرة من برتقالة ناضجة ) ، والأيام تمر ، والأيام لا بد أن تمر ، وكرمات العنب طولها دهر وعرضها دهر .

— ب —

اليهودى مالك البيارة الجديد يريد حفر بئر تجلب المـــاء للشجر . أولاد العرب بسواعدهم القادرة حفروا البئر ، وتدفق الماء . اليهودى المماطل أبدا المحب للمال دوما ـــ قال : « ادفع الأجر لما تحفروا عمقا للبئر يطاول قاماتكم » . فعل أولاد العرب ما أراد الخبيث . فأهال اليهودى كاره العـــربى التراب على الرجال ودفنهم أحياء ، وقال :

« هذا هو العمق الذى أريده لبئرى » .

— ٢ —

عصابات الصهاينة أعملت السلاح فى ابن العرب وبنت العرب ، والانجليز جلوا عن فلسطين وسلموها لليهود وفاء لعهد قديم ، وجيوش العرب انكسرت بالخيانة والسلاح الفاسد — لكن الله وعد ، ووعد الله حق ، والله لا يخلف الميعاد ، والأولاد يكبرون حتى فى المخيمات ، والأرانب تناسلت وكثر عددها فى بيت المرحوم بخيت البشارى ( من ذكر أسود اللون وانثى بيضاء، اشترتهما حزينة ذات يوم بعيد من سوق البندر ) ، والضباع السود طوقها العدو بالفالوجا ، ونبوية يتيمة الأب والأم شبت عن الطوق ، ونبوية تنظر لثور الحلوى الأحمر اللون — فهى لم تأكله بعد .. ما تزال تحتفظ به .. وان انكسر أحد قرنيه المشرعين — وتتذكر خالها الغالى الغائب بفلسطين الشام .

— ٣ —

عاد الرجال بعد النكبة من فلسطين الشام ، هم هنا بمصر يعملون داخل معسكرات الانجليز بمنطقة القنال ، الرجال يكسبون المال بسواعدهم ويحملون الشوق لأهاليهم ، والشوق فى الصدور كأنه نار الله الموقدة ، لكنهم على أية حال بأرض الوطن ، ومهما طالت الأيام فالعودة للأهل واجبة ومن بنت العم أو بنت الخال سيتزوجون ويتناسلون ويعمرون الأرض .

— ٤ —

مصطفى له الأمر والنهى فى الأربعين رجلا :

( رجال مختارون ، غلاظ شداد ، لا يعصون مصـــطفى ، ويفعلون ما يؤمرون ، بهم مكر الثعالب ، وخفة القطط ، وشجاعة ابن الوليد ، وحيلة ولين معاوية ، ومهارة الحواة فى الغش ولعب الكوتشينة ) .

يختار الرجل منهم فريسته من داخل معسكرات الانجليز ، وتكون الفريسة دائما اما استرالى واما هندى أو افريقى افطس الأنف ، يغرون الرجال بلعب الورق ، والقمار كسب وخسارة، والخمر قرينة القمار ، والخمر تشعل الرأس وتشعل الرغبة فى الكسب ، وخمر عرق البلح مصرية وذات مفعول قوى وسريع ( مصــطفى جاء معه بزجاجة بها ســائل عجيب — جاء به من السودان بلد الحر والأحجبة والاولياء الصالحين — اشتراها من ساحر قادر أيام كان يعمل هناك فى زمان فائت ) ، وقطرة واحدة

على برميل خمر تجعل من يشرب كأسا واحدة ينام نومة أهل الكهف •

وقد نام الجميع ، يصبح المعسكر بغير حراس تحميه ، لا حارس يرى ولا حارس يسمع ولا حارس يطلق النار ، يدخل مصطفى المعسكر وخلفه رجاله •

يحصل الرجال على الجبن الأبيض والجبن الرومى والمربى والشاى والزبد والأقمشة الصوفية التى تحمى الأجساد من لسعة البرد •

تمتلىء الزنابيل ، فيحملها الرجال فوق الظهور المحنية •

ما من مرة الا وقتل مصطفى الكابتن الانجليزى الكبير الرتبة •

يصرخ الكابتن الانجليزى — الأكبر رتبة من زميله المقتول — فى الجنود ويلعلع صوته فى الصباح داخل المعسكر : « ايجبتشن كلفتى اند رابش » •

مخازن مصطفى تحت الأرض ، لا يعرف سرها غيره هو ورجاله ، حتى الجن تعجز عن الوصول اليها ، بمخازن مصطفى ثروة لا تقدر بذهب أو بفضة •

— ٥ —

« أ »

أبناء مصر من كل ملة حملوا السلاح ، حتى رجال بلوكات النظام ، المظاهرات عمت الوادى ، والحكومة المصرية نادت بعدم التعامل مع الانجليزى المعتدى على بر البلاد ، المتعامل مع الانجليزى خائن للأوطان ، الفداء واجب والحكومة ستوفر العمل لابن البلد .

— ب —

اشترى الشيخ الفاضل جرنال المصرى لسان حزب الوفد ، واشترى جريدة الحزب الوطنى « منبر الشرق » لصاحبها « على الغاياتى » كاتب ديوان وطنيتى وصديق محمد فريد : على الغاياتى ومحمد فريد كلاهما حكم عليه الانجليز بالحبس .

ـ ج ـ

زعق محمد أحمد الشرقاوى ـ مراسل جرنال الكتلة وجرنال السوادى ـ فى أولاده وأم أولاده : « الا تكفوا عن الصراخ يا ملاعين ؟! » .

وكان محمد أحمد الشرقاوى عائد التوه من دار أمين أفندى عبد السميع شقيق صالحة أخت الشيخ الفاضل ، وسمع هناك من الجرامفون الذى يملكه أمين أفندى صوت أم كلثوم وهى تغنى على اسطوانة :

« مصر التى فى خاطرى وفى فمى ، أحبها من كل روحى ودمى ، من منكم يحبها حبى لها ، ويفتديها بالعزيز الأكرم » .

دخل محمد أحمد الشرقاوى حجرته ، وأغلق بابها عليه ؛ وزعم انه سيكتب مقالا عنوانه « بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن » ، سيرسل المقال بالبريد لجرنال السوادى ، ، ان لم تنشره السوادى خلال أسبوع فسيرسل المقال الى جريدة الكتلة ، وسيوقع مقاله بأمضاء «الصحفى العجوز» .

قال محمد أحمد الشرقاوى لنفسه :

« أجمع شتات أفكارى أولا ، سأدون بعض أبيات الشعر المأثورة وبعض الكلمات التى صارت مثلا ، وبعد ذلك أفرغ لكتابة مقالى بالليل لما ينام الجميع » .

وكتب بخط كوفي جميل :

( بحر الماضي يصب في بحر الحاضر والبحر ليس بملآن ) .

( ١ ) بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي .

نشيد غناه سيد درويش لثورة ١٩ ، وهو صالح لكل الثورات ويغنيه أي صوت ورائع لما تغنيه الجموع .. لماذا ؟

( ٢ ) لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا .

كان مصطفى كامل رجل قانون يحب مدنية فرنسا ، وكانت الدماء التركية تجري في عروقه ــ ولكنه ولد بمصر وشب بمصر وشرب من نيل مصر .

( ٣ ) لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا .

كلمة رد بها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص حاكم مصر لما اعتدى ابن عمرو على نصراني وقال مفاخرا: أنا ابن الأكرمين . استعار عرابي كلمة ابن الخطاب وبخها في وجه الخديوي ، وثم يهبط عرابي من فوق سرجه .

( ٤ ) وطني لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتني اليه في الخلد نفسي .

حتى حياة القصور لا تلهي الشعراء عن حب الوطن .

( ٥ ) والله ما دون الجلاء ويومه ، يوم تسميه الكنانة عيدا

( ٦ ) وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق .

صدقت يابن مصر .. يابن العرب ، وصدق ابن تونس .. ابن العرب .. لما قال : « اذا الشعب يوما أراد الحياة ، فلا بد أن يستجيب القدر ، ولا بد لليـــل أن ينجلى ، ولا بد للقيد أن ينكسر » .

# القسم الحادي عشر

## الذى لا يقدر على منعه أحد

- ١ -

يمامتان فزعتان حطتا على صدر البنت نبوية ، فرحت بهما البنت فرحا شديدا ، واختلات بنفسها ونظرت الى صدرها وقالت تحدث اليمامتين :

« مالكما فزعتين !؟ .. مالكما متأهبتين دوما للانطلاق !؟ »

وكلمت نبوية نفسها :

« هاتان اليمامتان محشوتان برمل وحصى ساخن » .

وتشجعت وأمسكت كل يمامة بيد .

حزينة رأت اليمامتين على صدر بنت بنتها ، وسمعت ابن الشيخ الفاضل ينادى بنت بنتها بصوت صار خشنا كمنجل الحاصد تعمل فى البرسيم ، فقالت لنفسها : «الحذر واجب» ، وقالت تطرد الهاجس الخبيث : «الايام الطويلة والمعاشرة الطويلة جعلت من الولد والبنت اخوين» .

الشيخ الفاضل وأهل بيته ينظرون لابنهم القريب دائما من بنت الحداد ويقولون : «نعم : تربى معها ، لكن ليهتم بدرسه ، العلم وظيفة نافعة تدوم ، اما الارض فتتفتت مع الزمن المقبل ، نعم : ستقسم الأرض على الابناء وابناء الأبناء .

لا أحد من أهل البلدة يرى فى علاقة ابن الشيخ الفاضل بنبوية مايستحق الكلام فوق المصاطب او على الفراش بالليل مع الزوجات : «اخ واخت .. لقد تربيا معا» .

اما الحدادة فتوغر صدر ابنها السعدى ــ فى الصباح والمساء ــ على بنت فهيمة : «البنت لامها» .

قال السعدى مكلما نفسه : « انا لا أصدق .. نبوية ذات الشعر الاسود المدهون والمعقود ضفيرتين لايمكن ان تكون كأمها فهيمة ، الأنف الشامخ كبرج الحمام ، والعينان السوداوان ليلة شتاء لا تنفذ فيها سكين ، الرموش الطويلة مذراة ، ما يخفينى هو الشفة العليا الطالعة لقدام ، لكن من المحال أن تكون نبوية كفهيمة ، نبوية فرس أصيل ، ولن يعتلى ظهر الفرس غيرى ، هى بنت خالى وأنا فارسها ، هذه فرسى أنا دون سائر الرجال

ما للقاء مبتور بين الولد والبنت !؟ ، فى اللقاء خجل ، وفى اللقاء ارتباك ، وشعور بخوف مبهم ، وارتفاع بدرجة حرارة الجسمين ، وفى اللقاء أيضا رغبة فى القرب والملامسة .

قال الولد : « ليت ما فات يعود » .

وقالت البنت : « تلك الطفولة التى مرت ليتها تعود » .

- ٢ -

ـ أ ـ

الريح أتت من محبسها البعيد كالخيل الجامحة ، شالت الأعواد اليابسة من فوق أسطح البيوت ، ونزعت الأوراق الجافة من فروع الشجر ، ولمت التراب الناعم من فوق سطح الأرض ، وضربت الوجوه والبيوت بالورق والقش والتراب ، وحطمت الأبواب الواهنة ولمت تنف السحب القليلة الرمادية المتباعدة فى السماء العالية ـ فتجمعت السحب وأصبحت أشد دكنة .

لما بكت السماء وسقط الدمع الطاهر على الأرض التى تضج من ظلم البشر للبشر ـ رقد التراب المهتاج واختفى الغبار من الجو وعم نور وعادت الريح لمعقلها وصارت السماء أشد زرقة ، وخرج الأولاد الصغار يبحثون عن اللقايا من جعارين وفصوص وخواتم وما تكشف عنه أرض الجدود ذات السر .

— ب —

رحل الشيخ موسى قطب البلد وحاميها ، رحل من يومين، وقد بكته السماء قبل رحيله بيوم بأمر من الله الذى له ملك السموات والأرض ، ولكل أجل كتاب :

جاء محمد المنشد كعادته ومدح الرسول ، وجاء الرجال كعادتهم وأقاموا حلقة الذكر ، وحان وقت خروج الشيخ من خلوته — لكن الشيخ لم يخرج ، ومر الليل بطيئا ثقيلا والشيخ لم يطل بعد بطلعته المنيرة على المحب العاشق والمريد المشتاق ، وما من حس بحجرة الشيخ بينما نور الفجر يرفع الظلمة عن البيوت والنخيل والشجر ويجعل الشخص يرى وجه رفيقه .

النفوس داخلها الشك ، فتكلم المحبون بهمس ، ثم ارتفع القول وتضارب :

« نكسر الباب » ، ، « من يجرؤ .. كشف الستر عقابه شديد » ، « سمعته بالأمس ينادى الله حبيبه : خذنى ، نادى الله ثلاث مرات بصوت مرتفع سمعته .. بصوت كابذ العشق» ، « فى الأيام الأخيرة كان دائم الحديث عن الرحيل وعن الموت مفرق الأحبة والجماعات » ، « ياناس .. ربما طال به الوقت وهو هناك يطوف بمكة المكرمة » ، « لا .. هنا مكانه .. ونحن حمله الثقيل .. فلننتظر عودته » .

— ج —

« يا أيها النهار الطالع كم أنت طويل ، وأنت أيها الليــل القادم كم أنت ثقيل ، لا طاقة لنا بك أيها النهــار الذى يعقب الليل : يامن حسمت الأمر .

« شممت عطر الجسد وما شممت عفنه » .

« الخشبة طارت طيرانا » .

« ونحن ما حملنا الخشبة ، هى التى سبحت فى الجو كغمامة مسرعة » .

« آه يا أيتها الحفرة السوداء ، وأنت يا أيها التراب المنهال نحن منك واليك وها هنا الجسد ، أما الروح فقد عادت لخالقها ، ونحن نعرف قدر الرجال ، ليلة مماته من كل عام سنحييها بالدف وبالطبل وبالمزمار وبالخيل سنتسابق وبالعصى سنلعب وسنقيم الأذكار ونطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا .

— د —

أحباب الشيخ — وكل البلد أحبابه — جمعوا المال ليبنوا الضريح ، تشاوروا فى أمر النقيب الذى سيتلقى النذور ، البعض يقول ان الشيخ قبل مماته كان قد قرب اليه خليل البياض وكان يهمس له بسره ، والبعض الآخر يقول ان يوسف سليم الجزار .

لم يخن الأمانة وقد فضله الشيخ على الجميع لما اختار حجرة من حجرات بيته لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد .

وحسم النقاش بالآتى :

( ١ ) البعد عن العدل ولو بشـــبر واحد لا يعلم عاقبته الا الله .

( ٢ ) للمحب والمريد الذى يطلب الشفاعة حق تقرير المزار .

( ٣ ) يقيم خليل البياض فى الضريح ــ حيث دفن جسد الشيخ ــ ويتلقى النذور .

( ٤ ) يقيم يوسف سليم فى الحجرة ــ فقد كانت خلوة الشيخ فى الحياة ــ ويتلقى النذور .

( ٥ ) على يوسف سليم أن لا يستخدم الحجرة فى غرض من أغراض الدنيا ، وان يحترم حرمتها ما دامت تحمل أشياء الولى الراحل .

# القسم الثانى عشر

# اللقاء بعد طول غياب

- ١ -

رمت الأم بجسدها القليل اللحم فى حضن الابن ومرغت رأسها المثقل بما حمل من هم الأيام فى صدر الابن وتشممت ثوبه ، ورأت الشعر الأبيض على فوديه :

« هذا ما فعلته بك وبنا الأيام يا ولدى .. لكنما بذراعيك قوة رجلين » .

طافت بالمكان روح بخيت البشارى : الأب والزوج ، وطافت بالمكان روح فهيمة : البنت والأخت ، وقالت الأم : « يا حبيبى .. ياكل الأحبة » ، وعلا بكاء الاثنين : « هذا مقام الفرح وهذا مقام الحزن » .

جاء المحبون الى بيت بخيت البشارى ، فقابلهم مصطفى وقابلتهم حزينة ، وتقبلا منهم التهنئة بسلامة العودة والعزاء فى الراحل والراحلة .

وقام مصطفى العائد بواجب الراحل والراحلة فأحضر فقيها تلا من القرآن العديد من السور ونفحه مالا ، وزار مصطفى قبر والده وأخته وقرأ فاتحة الكتاب ورش الماء على قبريهما .

- ٣ -

حكومة الوفد برت بوعدها ووفرت لكل من كان يعمل بمعسكرات الانجليز عملا ، ومصطفى عين فراشا بمدرسة البندر ـ لكن مصطفى لم يذهب ليستلم العمل ( ربما يكون السبب هو الراتب القليل ، وربما يكون التعفف أو الكبرياء عن العمل المهين ، وربما كان المال المخبوء سيظهر بعد حين ، على أية حال مصطفى لا ينكر قول أحد ولا يقر قول أحد ، والسر كله فى جوف البئر حزينة : هذه العجوز لا تبوح .. ما بان عليها فقر ولا يسر .. تفتح فمها الأهتم وكأنها ترمى بأسنانها فى وجه مكلمها « الخير فى دجاجاتى وحماماتى .. أبيع البيض وأشترى حاجتى ـ غيرى لا يعطيه الله ـ تقصد الحدادة أخت الحداد ـ وبنت بنتى نبوية سلمت يدها تصنع من الخيط أفضل طواقى الرأس » ) .

- ٤ -

أضمرت حزينة ـ وقد كثر قول القائل والقائلة عن المال المخبوء ـ ان تباشر ابنها بالسؤال ، وقالت :

« على أن أختار الوقت الحسن .. لما يكون معتدل المزاج » .

- ٥ -

قال مصطفى وكان معتدل المزاج ، وبدأ كلامه بقهقهة عالية :

« أأنت خائفة يا أم من ان تعولى ابنك فى شدته ؟ لا تخافى .. الرجل لا يغلب .. فى رأسى مال كثير » .

قالت حزينة فى عجب :

« فى رأسك !! مال كثير فى رأسك !؟ » .

قال مصطفى ضاحكا :

« المال أيضا مرمى بالطرقات كالأحجار » .

ردت حزينة وهى تتصنع الفزع :

« اطلب من الله أن يحفظ عقلك من الجنون » .

**قال مصطفى يحدث أمه بجد ووضع يده على كتفها :**

**« لن أعمل تحت أمر مخلوق .. نعم .. لقد تعبت وقاسيت يا والدتى الكثير فى غربتى من أوامر المخاليق .. الأمر مر الطعم .. ومن اليوم سأكون حر نفسى .. أنت لاتعرفين بشاعة حكم الآدمى الحاكم على الآدمى المحكوم .. لا تخافى .. سألتقط رزقى من الطرقات كالأنبياء والطير » .**

# القسم الثالث عشر

- الطوق والاسورة

يفيض النهر فيغطى الرمال الواسعة ـ هناك بالبر الغربى ـ بالماء النحاسى ، وينحسر مخلفا الغرين الطيب فوق الرمال ، فيدفن الزراع بذور البطيخ ، وتطلع الأعراش وتفرش سيقانها وأوراقها الخضراء ، ويتفتح النوار وتطل الثمرة ، ويكبر البطيخ ويستدير بقشرته الخضراء من الخارج ـ لكنه من الداخل شديد الاحمرار شديد الحلاوة قليل الماء .

تأتى القوارب بالتجار فيساومون الملاك ـ لا الزراع ـ ويشترون المحصول . وتنقل القوارب المحصول من البر الغربى الى البر الشرقى . وتتوقف القوارب عند المرساة ، ويفرغ الحمالون الحمولة ، ويرمون الأحمال خلف ظهورهم المقوسة ، ويرفعونها من تحت لفوق ويكومونها أكوام أكوام : « تلك أكوام صغيرة وتلك أكوام كبيرة .. هذا بطيخ مليح وهذا بطيخ ملاحته أقل .. وذاك بطيخ انشق أثناء الرفع والانزال » .

يقبل صغار التجار على كبار التجار يساومونهم ، ويدور الكلام ما بين أخذ ورد وزعيق ويفتح الله والله يسهل لك •

وقد تمت الصفقة يزعق الحوذية فى حميرهم فتتحرك الحمير تجر عربات الكارو المحملة بالثمار الحلوة ، وتدرج العجلات على الشارع المرصوف ، وهناك ببندر الأقصر تجد الثمار الحلوة شاريها المقتدر الذى لا يبخل على المتعة الطيبة الحلال •

كلهم عند المرساة : تجار كبار وتجار صغار وحمالون ونوتية وأصحاب قوارب وأصحاب عربات كارو •

ومصطفى ــ هنــا أيضا فى خص أقامه من بوص الذرة العالى •

هنا ــ يصنع مصطفى الشاى والقهوة ويقدمهما للشاربين ، والباذنجان المقلى بالزيت والفول النابت المغلى فى ماء والحمص المسلوق للآكلين •

هنا المرساة ، وهنا مصطفى وخص مصطفى المغطى بالخيش يحميه من الشمس الحارقة فى الصيف ويرمى بالظل ويمنع البرد الساقط فى الشتاء •

وهنا ، دكة خشبية وحصر للجالسين ، وهنا الكوتشينة لمن يريد التسلية البريئة •• ومن أراد لعب القمار فليلعب •

ومن هنا : طريقك الى الأقصر البندر وسـوق الثلاثاء ، لا طريق لك الا من هنا يا ساكن القرى والنجوع ــ ان كنت راكبا أو كنت سائرا •

# القسم الرابع عشر

# كل الخيوط تتشابك

- ١ -

ـ أ ـ

قال السعدى : « ابغى الزواج من بنت خالى يا أم » .

ردت الحدادة وكأن العقرب لدغتها : « لو تزوجت من بنت فهيمة فلن تكون ابنى ، سأذبح خلفك حمامة .. كأنك مت ، وتكون خلفتى كلها من البنات .. والعوض على الله » .

صرخ المحب العنيد : « نبوية بنت خالى .. وهى عارى .. وهى دمى .. ولحمها من لحمى » .

قالت الأم : نبوية بنت فهيمة لا بنت الحداد ، لو عاندت وركبت رأسك سأحرمك من الارث » .

رمى الولد بقراره القاطع : « افترضى انها بنت الشيطان ـ لكنها رغبتى أنا لا أنت » .

أشاحت الأم برأسها وأدارت ظهرها للابن غاضبة • وأدار الولد ظهره لأمه وانفلت غاضبا للخارج ، وصفق الباب الخشبى خلفه بعنف •

— ب —

قال مصطفى — ابن بخيت البشـــارى من حزينة وشـــقيق فهيمة — للسعدى ابن الحدادة : « انتظر حتى أموت أنا وتموت أمى ثم تقدم لنبوية وتزوجها ان رضت بك » •

— ج —

العناد والعشق جعلا السعدى يقرر أن لا يعود الى أمه وأبيه — قال :

« سأبنى عشى بعيدا عن العمران — هناك عند الساقية المهجورة ، سأطلق لحيتى وشعر رأسى وسأجد سلوتى فى الخمرة والمخدرات ، سينطلق الوحش ويكسر الأبواب وينط الحوائط ويحصل على ما يسكت صراخ بطنه ، وفرصتى أتية أتية •• فى اليوم القريب أو اليوم البعيد ، سأخطف تلك التى أعبدها وأمضى بها لنعيش أنا وهى حتى نهاية العمر : هناك مع الضـــوارى ، ودونكم ودونى يا أهل هذا البلد النهر والرمال والجبل الكبير » •

ـ د ـ

تحت ظل شجرة التوت القائمة بفروعها الكثيرة هناك عند الساقية المهجورة ـ نام السعدى ، وحلم :

« جمحت الفرس ، وألقت من فوق سرّجها ابن الشيخ الفاضل ، وجرت ورمت بسرجها ، وشقت الدروب نافرة العرف ؛ والعرف تحت الشمس الطالعة له وهجٌ يعمى البصر •• وكأن العرف من نار ، والخلق تجرى خلف الفرس ؛ ونبوية وسط الخلائق مفكوكة الشعر ، وقد بلغت الفرس الساقية المهجورة وجدت السعدى الذى نط كالقط واعتلى ظهرها الأملس وقبض على عرفها ، وظل يصفر لها بفمه حتى استكانت ، ومد السعدى يده لنبوية فمدت له نبوية يدها المرتعشة ، ورفعها لفوق وطوقها بساعده ، وشد عرف الفرس ولكزها فى بطنها بكعب رجله ، وصرخ : هيهه •• هاه ، وانطلقت الفرس كالريح : خاضت به الماء •• وتخطت عقبات الرمل المخادع •• وها هو الجبل الغربى الكبير قاب قوسين أو أدنى •

## - ٢ -

### ـ أ ـ

منع مصطفى بنت أخته من الخدمة فى بيت الشيخ الفاضل، وصرخ فى أذن أمه التى لاتسمع الا بالصراخ :

« نبوية كبرت يا أم •• وبعنقى دين للشيخ الفاضل سأرده وأنا قادر على رد الدين باذن الله •• وأنا أكسب من عملى والحمد لله فلماذا تعمل نبوية فى بيوت الغير ! ؟ » •

وقال مصطفى لنفسه وهو يهم بمغادرة البيت :
« لقد نبهنى السعدى ان البنت كبرت وصارت عروسة » •
بلهجة الولد الحريص بخ أوامر فى وجه نبوية :

« لا تذهبى للنهر •• سأكترى سقاء ؛ قومى انقعى الفول والحمص •• وسأرسل من طرفى من سيأتى ويأخذه » •

— ب —

جلست نبوية تتحسر على حالها :

« سأظل هنا بهذا البيت حتى يأتى رجل يوافق عليه خالى وجدتى فيأخذنى لبيت أمه ، أما هو فلن يتقدم لخطبتى أبدا ، هو السماء وأنا الأرض ولن تنطبق السماء على الأرض الا اذا قامت القيامة ، سأظل فى مكانى هذا بحسرتى ، انقع الفول والحمص وأكنس تراب البيت وأرشه ، وأسمع كلام العجوز ، كلام العجوز زاد اليوم عن اليوم الذى فات ، ولا أحد فى مواجهة العجوز غيرى أنا التى أسمع كل يوم ان الماضى حلو والحاضر مر ، حتى النهر لن أذهب اليه فقد أكثروا سقاء ، أنا غازلة الصوف وصانعة الطواقى وراميـــة الحب للطير — هل يحضر ليرانى فأغســـل ثوبه !؟ » .

- ٣ -

رحلت شمس الصيف الكبيرة ، وأقفرت المرساة ، ذهب صغار التجار وكبارهم والنوتية والحمالون وأصحاب العربات وسائقوا العربات الى حيث يعلم الله . وتلك هى شمس الشتاء بوجهها الضاحك وشعرها الأصفر المحلول . وها هم السياح قادمون من بلادهم — بلاد الغيوم والمطر والثلج الأبيض ، ليتفرجوا على الأثر القديم وليركبوا العربات تجرها الخيول وليشتروا الطواقى الملونة ويلبسوها ، ولتنقلهم قطارات الماء من بر الشرق الى بر الغرب ، وليعمروا اللوكاندات .

رحلت شمس الصيف بالبطالة وأتت شمس الشتاء بالعمل .

— « هيا الى اللوكاندة ياولد .. وانت يارجل هيا الى العمل .. ودعوا البطالة يا سكان نجع البحاروة فقد رحل الصيف .. وانتم لستم ممن يفلحون الأرض ولستم بالملاك ، فلتلبسوا ملابسكم البيضاء وعماماتكم البيضاء وتمنطقوا بالأحزمة

الخضراء .. منكم سيكون البارمان ومنكم سيكون الجرسون .. وفيكم المرمطونات » .

فكر مصطفى وهو يرقب النهر ــ وكان الرجال والصبيان قد مروا عليه ورموه بالسلام وكانوا يلبسون ملابسهم البيضاء وعمائمهم البيضاء وقد تمنطقوا بأحزمة خضراء : « لانهم يعيشون الصيف فى بطالة ويعملون بالشتاء ويحصلون على آجر وبقشيش كثير ، ولأن الصيف قادم لا محالة بعد الشتاء ــ فهم مقامرون » .

وفرك مصطفى ورق الكوتشينة الملون بين راحتيه وزعق فى النهر ، ورد عليه النهر :

« مقامرون .. مقامرون الى أبد الأبدين » .

وقال لنفسه :

« من يعمل بالليل سيأتى الى خصى بالنهار .. ومن يعمل بالنهار سيأتى الى خصى بالليل » .

## - ٤ -

حزينة لا ترى الا السواد يغطى كل شىء ، لقد خف الضوء بعينها التى ترى ، وقلت قدرة الاذن التى تسمع على التقاط الكلام من فم الآخرين حتى لو صرخوا • ونبوية تخفى بطنهـا المنتفخة عن عين جدتها الكلية بالثوب الواسع ؛ وتتوجع بالأنات المكتومة فالصرخات العالية قد تسمعها الجدة •

ـ لكن لما يتكرر رفض البنت للأكل ، ولما ترفض المعـدة ما بداخلها من طعام وترميه من الفم : لما يتكرر القىء وتقل الرغبة فى العمل ويكثر النوم ، فلا بد أن فى الأمر شىء لن يفوت على حزينة المجربة دون أن تعرفه •

أتت آمنة أم بدرة القابلة ، واختلت بنبوية داخل الغرفة، وخرجت آمنة وحدها من الغرفة ، وقالت للجدة تواسيها :

« كان الله فى عونك •• الاناء مشروخ » •

ضرست حزينة أسنانها الهتماء ، وقالت لنفسها :

« لو كنت أملك عافيتى لقضيت الأمر بنفسى » •

وشدت عكازها وخرجت للطريق تظلع ، لتنقل الخبر المفجع للابن •

# خاتمة

## - ١ -

مصطفى الهائج كال لنبوية الضربات الموجعة وجعل الوجه الجميل يتورم ، ولم الشعر الذى يحاكى الليالى بكفين نفرت منها العروق وبقبضتين قويتين رمى بالجسم الذى يبتغيه الرجال على الأرض وجرجر نبوية ، وأشبع بطنها الذى يحمل الحرام رفسا بقدميه ، وتركها ــ الى حين : حتى يحفر الحفرة ــ كوم لحم مهشم العظام تتأوه تحت الجدار .

رمى الفأس ، ورفع نبوية ، وأنزلها فى الحفرة ، وأهال التراب على الجسم حتى العنق ، وترك الرأس يطل بينما الشعر يرعى فى التراب . وصرخ مصطفى فى الغيب ، وترجمت حزينة صراخ الابن :

لا كسرة خبز .. ولا جرعة ماء .. حتى تموت وحتى تبوح بمن فعل .

- ٢ -

نبوية تقاوم العطش الشديد .. حلقها جاف لم يجرع الماء منذ عام ـ لكنها لن تنادى لتطلب الماء . ونبوية جائعة ( تشتهى ثور الحلوى المكسور القرن بداخل صندوقها الخشبى ) . ونبوية تنظر للكوة العالية بالحائط ـ تلك التى تأتى بالضوء والبرد للغرفة ـ وتقول : « ماعدت أحس بالبرد .. وهذا الضوء أهو ضوء الشمس أم ضوء النجوم .. الضوء لا يعنينى بقدر ما أريد أن أعرف أهو نائم أم مستيقظ .. كم من الأيام مر على وأنا هنا . يومان أم شهر أم عام ؟ أم أعوام طويلة تلك التى مرت .. وتلك العيون الشامتة المطلة من الكوة تسألنى عن اسمه ولن تغادر الكوة حتى أنطق باسمه .. أنا لن أنطق لأننى ميتة ميتة لا محالة .. لا بل لأننى لن أبوح باسم حبيبى والا فسيقتله الخال الهائج..لماذا لايقترب منى ذكر الأرنب الكبير هذا ويمرر شعره الناعم فوق جلد وجهى ويدفن جسمه الطرى فى شعرى متمرغا بفروه الناعم .

- ٣ -

خبط السعدى باب بيت بخيت البشارى بقصبة قدمه بعنف، وتخطى حزينة القاعدة دون أن يرميها بنظرة من عينيه الحمراوين المشتعلتين كجمرتين ــ انه يعرف بغيته ولن يضل طريقها .

أخرج من بين طيات ثوبه الممزق المنجل القاطعة الحـادة الأسنان ، وقبض على لمة الشعر الأسود المعفر المهوش كما يمسك بحزمة برسيم ، وحصد العنق الشامخ فمال البرج وطار الحمام وعوى الذئب على مشهد الدم النافر يغرق الثوب ويجرى على التراب كالحيات ، وحمل الرأس بعيون ماتزال حية تلمع ، وهو يعوى ...

## - ٤ -

### ـ أ ـ

كان مصطفى قاعدا يغسل الأطباق والفناجيل والأكواب من رواسب القهوة والشاى فى جردل به ماء ، وحول مصطفى جلس الرجال يتكلمون ويدخنون الجوزة ويشربون الشاى والقهوة السوداء بغير سكر ويختلفون على اللعب ، ومصطفى غافل عن هذا العالم ـ بارادته ـ وبعيد .

### ـ ب ـ

ظهر الشيطان فجأة بلحيته القذرة المهوشة وشعر رأسه المنفوش ، وبصق السعدى على وجه مصطفى ، ورمى فى الجردل المملوء بالأكواب والفناجيل والماء القذر برأس الجميلة .

— ج —

الرجال يطوقون مصطفى بصمت مميت ، كفوا عن اللعب المسموع ، والكلام المسموع ، بينما عيونهم تقول كلاماووجوههم تنطق بكلام ، مالهم لا يمشون ويغادرون المكان ويبقى مصطفى وحده بهذا المكان حتى نهاية العمر •

صرخ مصطفى في الصمت وفى الرجال وفى كل من يسكن القرية من نسوة وصبية وبيوت ونخيل وحيوان وشجر :

« كلكم يعرف من أنا •• كلكم يعرف من أكون •• كنت صبيا لما سافرت الى السودان •• وقفت وخدى ورفعت اليد فى وجه الريس عبد الظاهر وألزمته الحد ، عرفت من النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ، بالسودان نمت على فراش شيخ عشيرة • أنا الولد الصغير الذى لا راح ولا جاء نمت على فراشه وهو شيخ عشيرته يأمر وينهى ويصدر أوامر القتل على ابن آدم ويعتق رقبة ابن آدم بمثل ما يشرب الماء — لكنه العاجز اذا ما أمر زوجته بالحفاظ على فرجها » •

« هناك منكم من عاشرنى بالشام ويعرف اننى تزوجت واننى عجزت كشيخ العشيرة عن حماية فرج زوجتى فطلقتها ، من منكم لا يعرف النساء ، أنا الذى عرفت تزوجت مرة واحدة ولن أكررها

مهما طال بى العمر ، وما فكرت بعد الذى حدث.. وما فكرت قط، السعدى ولد ونبوية بنت والحداد خاله ونبوية ليست بنتى وهى عار السعدى وعارى من بعده ، ضربتها ودفنتها فى حفرة ومنعت عنها الطعام والماء لتبوح باسم الفاعل ، لو عرفت اسمه لمزقت جسمه ولو كان ابن فرعون .. لشربت من دمه وما كان ليصدنى مخلوق .. لكن السعدى قتلها قبل أن تنطق » .

شعر مصطفى أنه يعوى فى خواء ويمشى فى عتمة تحيطه وتمتد أمامه الى ما شاء الله ، وانهم قد أسقطوه من حسابهم ومن عداد الرجال .. انها فرصتهم ــ هؤلاء رجال هذا الزمان ــ ليحطموا رأسه المتكبرة : لقد أصدروا حكمهم .

وشعر مصطفى كالذبيحة :

« أنا .. أنا .. وبعد هذا العمر الذى مر » .

وطلب من نفسه أن تعطيه ما يريد : شللا كاملا عن الكلام والحركة والشوف والسمع ــ ولبت نفسه ما أراد وأطاعت .

ــ د ــ

حمل الرجال مصطفى وأرقدوه فوق العربة ، وجر الحمار العربة ، وصرت العجلات ثم درجت على الشارع الأسفلتى ،

وعرجت عند مقام الشيخ موسى ، وحرن الحمـــار وهو يهبط المنحدر الترابى ـ لكن الســـائق صرخ فيه وكال له الضربات الموجعة بفرع الشجرة اليابس فواصل ســـيره جاريا بالحمولة الخفيفة .

ـ هـ ـ

الدمع جف فى المحجرين ، والضوء انطفأ فى العينين منذ زمان ، وها أنت يا حزينة بعد مرور الزمان مع الابن المقعد داخل المكان ، رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشـــامتة ، ولا ضـــوء ولا نار بمـــوقد ، وما الحاجة للنار والموقد !؟

ـ و ـ

ولى الليل بالنجوم ، وجاء النهار بالشمس ، وأطل الأرنب الذكر الكبير الخائف من باب بيت بخيت البشارى المفتوح ، ثم نط للخارج وتبعته الأرانب الكبيرة والصغيرة تسعى للحشائش تحت كرم النخيل غير المسور ـ الذى يملكه الشيخ الفاضل ـ والواقع خلف بيته ...

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٠٥/ ١٩٩٦

ISBN 977- 01 - 4970 - 5

# مكتبة الأسرة




بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦


مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب